

كلمة صغيرة

بعض الناس يهجمون على ما لا يحسنون، فيخرج عملهم غير ناضج وغير مقنع، وذلك أنهم يرون بعض الناس يكتبون، فتدفعهم الغيرة على الكتابة، دون أن يأخذوا لهذا الأمر عدته. وعدة الكتابة الفكرة والأسلوب، فالفكرة ينبغي أن تكون واضحة محددة في نفس صاحبها أولاً، ثم بعد ذلك يأتي الحرص على نقلها إلى الآخرين، وهذا لا يكون إلا بامتلاك الأسلوب الواضح المؤثر الذي هو خليط من الموهبة والتعلم والقراءة الكثيرة.

إننا نطمح أن يكون كل ما ينشر في «البيان» قد استجمع هذه الحقائق البسيطة والمهمة، وندرك أيضاً أن هناك مسافة بين واقعنا والطموح. والأمل في قراء البيان وجمهورها كبير والحمد لله.

المحرر

الافتتاحية

الحق والقوة

رئيس التحرير

«الهندوس يهدمون المسجد البابري» ...

«الصومال والاحتلال الأمريكي» ...

«البوسنة تحترق» ...

أخبار يرتاع لها قلب المسلم وتأخذ بمجامع قلبه وعقله، وتجعله يفكر طويلاً بهذه الأحداث، ولماذا بلغ الهوان بالمسلمين إلى هذا الحد؟ وما هي أسباب هذا الضعف المزري؟ هل هانوا على ربهم فهانوا على أعداء الله حتى أصبحوا يسامون الذل والخسف في كل مكان، وحتى طمح بهم عباد البقر وعباد الصليب؟

إن قيام الطائفة الهندوسية المتعصبة بهدم المسجد البابري في شمال الهند، واحتلال الصومال من قبل (المارينز) تحت اسم المساعدات الإنسانية و(عودة الأمل) وما يفعل في البوسنة من تدمير وتهجير وقتل وتحريق..؛ كل هذا إنما يدل على شيء واحد وهو أن المسلمين في هذه الأزمان الأخيرة ليس لهم وزن يحسب حسابه، ولا يكيل بمكيالهم أحد، وأنهم لا يأمر ولا يُستأمر، ولا يشهدون ولا يُستشهدون.

إن ما حدث في الهند لا يقتصر على هدم المسجد البابري وبناء معبد هندوسي مكانه، بل إن الأمر يتعدى ذلك، إنها بداية لطمس الهوية الإسلامية وبداية (للتطهير الديني) كما يفعل إخوانهم الصرب، فهؤلاء الهندوس قد أكل الحقد أكبادهم من يوم أن فتح بلادهم المجاهد الكبير محمود الغزنوي واستمر حكم المسلمين لهم عدة قرون، حتى جاء الاستعمار الإنكليزي وساعد الهندوس على إزاحة المسلمين عن الحكم، هؤلاء الهنادكة استضعفوا المسلمين عندما رأوهم كالأيتام على مائدة اللئام،

فهم يذبحون في البوسنة ولا من مغيث يمنع عدوان الصرب عنهم ومشروعهم لهدم المسجد قديم ولكنهم تجرأوا في هذه الأيام .

وإن مجيء أمريكا باسم الإغاثة إن هو إلا احتلال مبطن للصومال والهيمنة على القرن الأفريقي وإقامة دولة علمانية في الصومال، بل إن أهدافها لتشمل المنطقة العربية والإسلامية بأسرها . وقد استنكر بعض الساسة وبعض الصحف - ولو ظاهرياً - هذا الأسلوب المفضوح من استخدام الإغاثة وسيلة للاحتلال .

لا نريد أن نضع اللوم كله على أعداء الإسلام ونترك أنفسنا ، فبرغم تعصب الهندوس إلا أن اللوم الأكبر يقع على عاتق المسلمين هناك ، وهم ليسوا في قلة من العدد ، فلماذا لم يأخذوا بأسباب القوة المادية والمعنوية ، وأولها : بث الوعي الديني بين صفوف عامة المسلمين، والبعد بهم عن الخرافات والبدع، وإحياء الشخصية الإسلامية المتميزة، والترقي بالعلم النافع الذي يزيدهم قوة إضافة إلى قوة الإسلام الذاتية . وما أحرى مسلمي الهند بقول الشاعر العربي :

لا أتقي حسك الضغائن بالرقي فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللحقوق حقوداً

إن ما جرى ويجري في الهند والبوسنة وغيرها من بلاد المسلمين إن هو إلا نتيجة الابتعاد عن الله ، وعن معرفة سننه في الاجتماع البشري ، وسننه في التغيير والارتقاء وفي الصراع والتمكين في الأرض ، وأن الحق لا بد له من قوة تحميه حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وحتى لا تكون يد المسلم دائماً هي السفلى .

ومن أعظم سننه في الصراع أن يتخلص المسلمون من الاستبداد الذي جثم على صدورهم أحقاباً فأضاع شخصيتهم ، وأضاع علمهم وثروتهم وأخلاقهم .

ومن أسباب التغيير الدعوة إلى الوحدة والائتلاف الذي يعد من أعظم نعم الله ((وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَالِيكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)) [آل عمران ١٠٣] وإن من أشد الأضرار على المسلمين تفرقهم واختلافهم على التقير والقطمير ، وما ذلك إلا دليل على عدم إحاطتهم بمقاصد الإسلام ، وعلى ضعف عقولهم ومعرفة قاعدة المصالح والمفاسد .

وما يقع الآن في أفغانستان هو مصداق لأضرار التفرق بين فصائل المجاهدين الذين استعان بعضهم بالمرتزقة والأحزاب الباطنية لقتال إخوانهم وصددهم عن المشاركة في حكم أفغانستان حكماً إسلامياً ، ودارت الدائرة فإذا بهؤلاء المرتزقة يقاتلون الذين استعانوا بهم ، فهم كما قال الشاعر :

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيدا

إن الأمم لا تستيقظ إلا بقيام نفر منها يدعونها إلى الوحدة والاعتصام بالعروة الوثقى ، وينفخون فيها روح العزيمة ، ويصلحون منها ما أفسدته روح التخلف ، وما أفسده تجار الدين والمفتونون بالدنيا .

إن ما جرى ويجري في ديار المسلمين إنما يدل على أنه ما لم تقم للمسلمين دولة تحميهم وتدافع عنهم ، وتطالب بحقوقهم ، فسيبقون مستضعفين في الأرض . ولعل هذه التحديات الكبيرة التي تواجههم في هذه الأيام تكون باعثاً على استنهاض الهمم واستنفار الطاقات وتفهم ما يدور حولهم . فإن سنة الله في الصراع بين الأمم من سنن الله الكونية ، وقد يُبتلى المسلمون بالهناكة وأمثالهم حتى يخرجوا عن ضعفهم وركودهم وشتاتهم . وإن أزمة المسلمين أكبر من أن تحل بحماسة مؤقتة ، إن الأمر جد لا لهو فيه ، وإلا فهو الذبح .

الاستطراد عند ابن تيمية

عبد القادر حامد

أكثر من ترجم لابن تيمية أو كتب عنه تعرض للحديث عن مؤلفاته وخصائص أسلوبه ومنهج تفكيره ، لذلك لن أعيد ما قالوه ، وإنما أشير إلى قضية الاستطراد والتشعب التي اتصفت بها كتاباته التي وصلتنا، وإلى نكتة لاحظتها من خلال تكرار النظر فيما ترك لنا من مؤلفات وكتابات . أما الاستطراد ، فنعم، هذه صفة واضحة في مؤلفاته، اشتكى منها محبوه وشأنوه ، وليس الاعتذار لشأنيه عن استطراده برادهم عن هذا الشأن، وصار فهم عن هذا التحامل، ومعيدهم من دائرة الفجور في الخصومة إلى دائرة الإنصاف . وذلك لأن منشأ بغضهم وتحاملهم أمور أخرى غير صعوبة التدوق وعسر الهضم ؛ فقد تقدم طعاماً أو دواء لمن لا يتذوقه ولم يعتده ، ولكنه مؤمن بفائدته ، ومقتنع بقيمته . وليس هذا حال كارهي ابن تيمية والمتحاملين عليه ، فأكثر مواقف هؤلاء العدوانية مبنية على الوصف والتقليد ، أو الهوى . وهذا الهوى الغالب هو الذي يدفع رؤوسهم إلى تحذير أتباعهم من قراءة آثاره ، والاقتراب من حماه ، والتواصي بمقاطعة من يفعل ذلك ممن يخرج عن عبودية الفكر وأسر الشعوذة .

يستطراد ابن تيمية نعم ، ويتعب قارئه نعم ، ويأخذ به - بجد وهمة عجيبيين - في شعاب ووهاد بكر لم تطرق من قبل ، ويقوده - صاحباً أميناً وحارساً يقظاً - إلى حيث الدهشة التي يُعَبِّرُ عنها أحياناً كثيرة بإيقاف النَّفس برهة ، ووضع الكتاب جانباً ، وتسريح الفكر وراء خاطر جانبي : كيف اهتدى الرجل إلى هذه الفكرة ، وكيف سطر قلمه هذه الأبدية؟! هذا شأنه في أغلب ما خلف من كتابات ، كما كان شأنه في دروسه التي يصفها شاهدٌ عيان من تلاميذه فيقول :

"وأما ذكر دروسه ؛ فقد كنت - في حال إقامتي بدمشق - لا أفوتُّها . وكان لا يهيئ شيئاً من العلم ليلقيهُ ويوردُه ؛ بل يجلسُ - بعد أن يصلي ركعتين - فيحمدُ الله ويثني عليه ، ويصلي على رسوله - صلى الله عليه وسلم - على صفة مستحسنة مستعذبة ، لم أسمعها من غيره - ثم يشرع ... فيفتح الله عليه إيرادَ علوم ، وغوامض ، ولطائف ، ودقائق ، وفنون ، ونقول ، واستدلالات باياتٍ ، وأحاديث ، وأقوال العلماء ، ونصر بعضها وتبيين صحته ، أو تزييف بعضها وإيضاح حجته ، واستشهاد بأشعار العرب ، وربما ذكر اسم ناظمها... وهو - مع ذلك - يجري كما يجري السيل ، ويفيض كما يفيضُ البحر، ويصير - منذ يتكلم ؛ إلى أن يفرغ - كالغائب عن الحاضرين ؛ مغمضاً عينيه، وذلك كله مع عدم فكر فيه ، أو رويةٍ ، من غير تَعَجُّرٍ ، ولا توقفٍ ، ولا لَحْنٍ ، بل فيضٌ إلهي ، حتى يَبْهَرَ كُلَّ سامعٍ وناظرٍ ، فلا يزال كذلك إلى أن يَصْمُتَ . وكنت أراه - حينئذٍ - كأنه قد صار بحضرة من يَسْغَلُهُ عن غيره ، ويقعُ عليه - إذ ذاك - من المهابة ما يُرْعِدُ القلوبَ ، ويحيرُ الأبصارَ والعقول ."(1) .

وأمر آخر ينبغي أن لا يُغْفَلَ عنه - عند النظر إلى استطراد ابن تيمية - وهو أنه - في كل ما كتب - كان صاحب منهج ، ومن منهجه انطلاقة من مجتمعه وظروفه، وتفاعله الكامل مع مشاكل المسلمين في عصره ، فقد اصطبغت نفسه وقلبه بالإسلام عقيدةً وسلوكاً من جهة ، واكتوى بما شاهد وعرف من الأمراض التي حلت بالعالم الإسلامي ، ونفذ - ببصيرته الثاقبة - إلى الأسباب الحقيقية التي آلت بالمسلمين إلى تلك الحال ، فمثله كممثل طبيب حَذِق علم الطب ، وهو - مع هذا - صاحب قلب مفعم بالرحمة، وشخصية تفيض غيرة وحرصاً على مرضاه، إذا عالج مريضاً يصف له أكثر الأدوية فائدة، وأقرب طرق الاستعمال مأخذاً . مع التحذير الشديد من أسباب المرض ، والشرح المفصل لكل الظروف والمداخل التي يمكن أن تنتسب منها الجراثيم . فيجمع بين الطب والوقائي والطب العلاجي

، ولا يقتصر على كتابة الوصفة ببرود غير المتفاعل وغير المخلص . ولعله - هو نفسه - خير من يبين لنا طريقته في البحث والكتابة حيث يبين لنا الأدلة وطريقة عرضها ، وإلى أي طريقة يميل فيقول :

"ومما ينبغي أن يعرف أن الأدلة نوعان :

نوع : يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه .

ونوع : يحض مع ذلك على الرغبة فيه ، أو الرهبة منه .

فالأول : من جنس الخبر المجرد .

والثاني من جنس الحث ، والطالب ، والأمر ، والإرادة ، والأمر بالشيء ، والنهي عنه .

وذلك كمن علم أن في المكان الفلاني جمادات وحيوانات ، أو نبات ليس له فيها غرض ؛ لا حب ،

ولا بغض ، فليس هو بمنزلة من علم أن في المكان الفلاني صديقه ، وولده ، ومحبوبه ، وما له ،

وأهله ، وأهل دينه . وفي المكان الفلاني عدوه ، ومبغضه ، ومن يقطع عليه الطريق ، ويقتله ،

ويأخذ ماله . فكذلك دلائل النبوة ، هي - كلها - تدل على صدق النبي ، ثم يعلم ما يخبر به النبي من

الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد ، لأنه أخبر عن الله بذلك ، وهو صادق فيما يخبر به . فهذا

طريق عام . وأما إثبات نبوة الأنبياء - بما فعله بهم وبأتباعهم من النجاة ، والسعادة والنصرة ، وحسن

العاقبة ، وما جعله لهم من لسان الصدق ، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك ، والعذاب وسوء

العاقبة ، وإتباعهم اللعنة في الدنيا ، مع عذاب الآخرة - فهذا يدل - مع صدق الأنبياء - على الرغبة

في اتباعهم ، والرغبة من مخالفتهم . ففيه :

العلم بصدقهم ، والموعظة للخلق .

والوعظ هو أمر ونهي ، بترغيب وترهيب ، قال تعالى : ((وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا

لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا * وَإِذْ لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)) [النساء ٦٦ -

٦٨] ، أي : لو أنهم فعلوا ما يوعظون به ، وما يؤمرون به . وقال : ((بِعِظْكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)) [النور ١٧] ، أي ينهاكم الله أن تعودوا لمثله . وهذه الطريقة أكمل وأبلغ في

حصول المقصود ، فإنها تفيد : العلم بصدقهم ؛ والرغبة في اتباعهم ، والرغبة من خلافهم . وتفيد :

ثبوت صحة الدين الذي دعوا إليه ، وسادة أهله ، وفساد الدين المخالف لدينهم ، وشقاوة أهله" (٢)

وواضح من هذا الاقتباس الطويل أنه يفضل النوع الثاني ، وهو طريقة الأنبياء ، وطريقة القرآن

الكريم ، مع الوضع في الاعتبار الظروف السياسية والفكرية التي واجهها ابن تيمية ، وتنوع

الأخطار التي أصبحت تهدد الإسلام كنظام حياة ، والمسلمين كأناس لهم هويتهم وخصوصيتهم

الثقافية ، فالتتار من الشرق ، والصليبيون من الغرب ، والفرق الضالة من القلب ، والبدع الاعتقادية

والعبادية تنتشر ، والسياسة الدنيوية تخلف آثارها السلبية - التي يصعب اقتلاعها وعلاجها - وتتسلح

بالتريغيب والترهيب ، فتطمع وتفزع ، أو تمنح وتمنع (٣) .. كل هذا وأكثر منه كان ماثلاً في عقل

ابن تيمية في كل ما كتب تقريباً ، ففضاياه التي اهتم لها ، وصب فيها قوة نفسه ، وحرارة قلمه كلها

تدور حول : ما الذي انتقل بالمسلمين من حالة المد إلى حالة الجذر ، وما الذي يخرجهم من

صعوبات اللحظة الحاضرة إلى أفق أرحب ، ومستقبل أفضل ؟ يستطرد ، لكنه لا ينظر إلى إمتاع

قارئه ، وهددهته والتسرية عنه - كما ينحو بعض الكتاب ؛ يحرص على أن يظل قارئه معه مستجمعاً

نفسه ، لا يبدؤ عنه وعيه لحظة ، لأن الأمر جد ، لا بد فيه من التشمير وأخذ العدة . وهو ليس من

صنف أولئك الذين يعتبرون العلم ترفاً فكرياً ، أو أمراً تكميلياً يزينون به صورهم عند الناس ، ولا

من الذين طلبوا اسم لمنصب أو رتبة أو رجاء تزود من الدنيا وتكثر فن الامتيازات وتجمل ، وعندهم

من الفراغ ما يجعلهم ينتحون ركناً هادئاً يبعث على التأمل ، بعيداً عن الناس وصخب الحياة ، حولهم

المراجع والمصادر ، يرتبون ويجمّلون ويصقلون ويعيدون النظر فيما يكتبون ويؤلفون - شأن أصحاب الحوليات - لا ، لم تكن حياة ابن تيمية العاصفة تسمح له بهذا ، ولم يدعه خصومه لمثل هذا الهدوء والاستقرار الذي يتطلع إليه الكثير من أهل العلم والفكر ، يتصدى للمشكلة ، فيبدأ بتحليلها ، فتفجر المعلومات بين يديه . أتخيله كحامل فأساً يريد أن يحفر في الأرض باحثاً عن الماء ، يضرب ضربة أو ضربتين فتفجر الأرض تحت قدميه بالماء الثر الغزير ، فيبدأ بالتقنية (٤) له حتى يوجهه الوجهة التي يستفاد منه فيها ، فيزداد الماء ويطغى حتى يغلب أطراف القناة الأولى ، فيتوزع جهد الشيخ بين تقوية ضفاف تلك القناة والبدء في قناة ثانية تخفف الضغط عن الأولى ، فيصيب الثانية ما أصاب الأولى ، فيقويها ويفتح ثالثة ورابعة.. ثم يعود ليذكرك بأن عليه - بعد أن قوى الثانية والثالثة - أن لا ينسى أنه بدأ بالأولى وغلبه انفجار الماء عن إكمالها إلى غايتها ، فيمشي معها خطوة خطوة يغالبه الماء عليها فيكاد يغلبه ، فيفتح له مسرباً يخفف من ضغطه و عنفوانه ، ثم يهيمن أخيراً على التيار ، ويصل بك إلى الغاية بعد أن كانت النية أن يكشف نبعاً ويُجري قناة ؛ فإذا بالنبع يقذف بالسيل الدُّفَاع (٥) ، لا تكفيه قناة واحدة ما لم تسيّر عن يمينها وشمالها أقنية تثبت الحياة في الأرض التي كانت هامة منذ قليل ! وإذا بها تستحيل غرباً، ويروى الناس ، ويضربون بعطن (٦) .

أما النكتة التي لحظتها فهي أن كثيراً مما قاله ابن تيمية كتبه تلاميذه ، إما في دروسه العامة، وإما في مناظراته الكثيرة، ولا بد من وجود فرق واضح بين الأسلوب المرتجل، والآخر الذي يأتي نتيجة الانفراد للتأليف والتهيو له . ونستطيع أن نميز هذين الأسلوبين إذا نحن درسنا مؤلفات ابن تيمية دراسة داخلية ، وحللنا السياق في كل ، وألقينا الضوء على الظرف المحيط بكل أثر من آثاره. وسنلاحظ أن درجة الانفعال ترتفع وتشتد في الموضوعات التي كان يرتجلها إجابة على فتوى أو مسألة، أو اشتراكاً في مناظرة على مسمع من الناس ، وقد يصل الانفعال إلى درجة الحدة التي أخذت عليه واعتبرها أعداؤه مدخلاً يدخلون منها وبها إلى القدر فيه والتفكير منه .

سيبدو لنا ابن تيمية في حالتين:

الحالة الأولى وكأنه يتكلم قائماً مندفعاً فيما هو فيه من توضيح ورد وحض وتحذير ، أو ماشياً عاجلاً حوله تلاميذه ، كل يريد لو ظفر منه بإجابة على ما عنده ، فيحاول أن يلبي رغبة الجميع، فيجيب بأجوبة قصيرة لكسب الوقت ، ولكنها كافية ووافية بالمقام .

والحالة الثانية قد فرغ لنفسه، واستغرقته قضية، فبدأ بالكتابة فيها ، محدداً ومحرراً ومستقصياً، ومستبعداً مواطن الاشتباه والاشتباك، ومحلاً ومعقّباً على أسباب ذلك، وهو في كل ذلك لا يخطو خطوة بدون دليل، بل أدلة، وينحدر بعد ذلك انحدار السيل - بوصفه الذي سقناه عن أحد تلاميذه آنفاً - تصادفه أرض مستوية فيفيض ويتشعب ، ثم يعود فيستجمع قوته حين تعترضه مضايق وحزون ، فمخفضات وانهدامات ، هادراً يرمي بالجلاميد ويقذف بالزبد ، حتى يصل إلى قراره .

الهوامش :

- ١- الأعلام العلية للزار ٢٧-٢٨ .
- ٢- الجواب الصحيح ٢٧٤/٤ .
- ٣- كما قال سيء الذكر أنور السادات .
- ٤- التقنية : حفر القناة .
- ٥- الدُّفَاع : السيل العظيم الذي يدفع بعضه بعضاً ، قال المعري يصف سفينة نهريّة .
سارت فزارت بنا الأنبار سالمة تُرجي وتُدفع في موج ودُّفَاع
- ٦- تضمين مأخوذ من الحديث رقم ٣٦٨٢ في صحيح البخاري ، فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه- راجح شرحه في فتح الباري ١٩/٧ .

آية من كتاب الله (*)
 ((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ))

[آل عمران ١٧- ١٨]

قال ابن تيمية في تفسير هذه الآية :

- ١ -

أقوال المفسرين في معنى : شهد

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ (شهد)، فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة: أي حكم وقضى .

وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج: أي بين .

وقالت طائفة: أي أعلم .

وكذلك قالت طائفة: معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين: الإقرار .

وعن ابن عباس أنه: شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ، ولم يكن سماء ولا أرض ، ولا بر ولا بحر ، فقال : ((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)) .

وكل هذه الأقوال - وما في معناها - صحيحة، وذلك أن الشهادة تتضمن : كلام الشاهد ، وقوله وخبره عما شهد به، وهذا قد يكون، مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره، وإن لم يكن معلماً به لغيره ، ولا مخبراً به لسواه (١) . فهذه أولى مراتب الشهادة .

ثم قد يخبره ويعلمه بذلك، فتكون الشهادة إعلاماً لغيره وإخباراً له، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به . سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن (....). فالشهادة تضمنت مرتبتين:

إحداهما: تكلم الشاهد وقوله ، وذكره لما شهد في نفسه به .

والثانية: إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به ، فمن قال من المفسرين : حكم وقضى ؛ فهذا من باب اللزام ، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر . (*)

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك ، وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ؛ فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بالله، فلا يعبد، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهذا يتضمن الأمر

بعبادته؛ والنهي عن عبادة سواه، فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي ، كما إذا استفتى شخص شخصاً فقال له قائل : هذا ليس بمفتٍ ؛ هذا هو المفتي ، ففيه : نفي عن استفتاء الأول

؛ وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني . وكذلك إذا تحاكم إلى غير حاكم ، أو طلب شيئاً من غير ولي الأمر ، فقيل له : ليس هذا حاكماً ، ولا هذا سلطاناً ، هذا هو الحاكم ، وهذا هو السلطان ، فهذا النفي

والإثبات يتضمن الأمر والنهي ، وذلك أن الطالب إنما يطلب ممن عنده مراده ومقصوده ، فإذا ظنه شخصاً فقيل له: ليس مرادك عنده وإنما مرادك عند هذا كان أمراً له بطلب مراده عند هذا دون ذلك .

والعابدون مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة ، فإذا قيل لهم : كل ما سوى الله ليس بالله ؛ إنما الإله هو الله وحده ؛ كان هذا نهياً لهم عن عبادة ما سواه ، وأمراً بعبادته .

وأيضاً ؛ فلو لم يكن هناك طالب للعبادة فلفظ الإله يقتضي أنه يستحق العبادة ، فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمراً بما يستحقه .

وليس المراد هنا "بالإله" من عبده عابد بلا استحقاق ؛ فإن هذه الآلهة كثيرة ، ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل ، كما قال تعالى : ((إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)) [النجم ٢٣] ، وقال : ((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)) [لقمان ٣٠] .

فالآلهة التي جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة ، لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة ، كمن جعل غيره شاهداً أو حاكماً أو مفتياً أو أميراً وهو لا يحسن شيئاً من ذلك .

ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم" (٢) فإن بعض الناس قد أله ذلك محبة وذكلاً وتعظيماً .

فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه .

وأيضاً فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، فيقال للجمل الخبرية : قضية ، ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا المعنى وانتفاء هذا المعنى ، وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار ، قد حكم بثبوت ما أثبتته ، ونفي ما نفاه حكماً خبرياً ، قد يتضمن حكماً طلبياً .

- ٢ -

وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة .

فالقول هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأوحاه إلى عباده كما قال : ((يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)) [النحل ٢] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه؛ وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه، ولهذا قال الله تعالى: ((أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مَن قَبْلِي)) [الأنبياء ٢٤] .

وأما شهادته بفعله فهو : ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل ، وإن لم يكن هناك خبر عن الله ، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد ، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره ، فهو بمنزلة المخبر به ، الشاهد به ، كما قيل : سل الأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج ثمارها ، وأحيا نباتها ، وأغطش ليلها ، وأوضح نهارها . فإن لم تجبك حواراً ؛ أجابتك اعتباراً .

وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه ، فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها ، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو سبحانه ، وبين ذلك ، فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة ، قال ابن كيسان : شهد الله - بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه - أنه لا إله إلا هو .

- ٣ -

وقوله : ((قائماً بالقسط)) هو نصب على الحال ، وفيه وجهان :

قيل : هو حال من (شهد) أي شهد قائماً بالقسط .

وقيل : (حال) من (هو) أي : لا إله إلا هو قائماً بالقسط ، كما يقال : لا إله إلا هو وحده . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ((قَائِماً بِالْقِسْطِ)) يجوز أن يعمل فيه كلا العاملين على مذهب الكوفيين ، في أن المعمول الواحد قد يعمل فيه عاملان ، كما قالوا في قوله : ((هَاتُوا قُرْءُوا كِتَابِيَه)) ، و ((أَتُونِي أفرغ عَلَيْهِ قِطْرًا)) ، و ((عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدًا)) ونحو ذلك .
وسببويه وأصحابه يجعلون لكل عامل معمولاً ، ويقولون حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقول الكوفيين أرجح .

وعلى المذهبين فقوله : ((بِالْقِسْطِ)) يُخْرَجُ على هذا ، إما كونه يشهد قائماً بالقسط ، فإن القائم بالقسط هو القائم بالعدل ، كما في قوله ((كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)) [النساء ١٣٥] ، فالقيام بالقسط يكون في القول ، وهو القول بالعدل ، ويكون في الفعل ، فإذا قيل : شهد (قائماً بالقسط) ، أي : متكلماً بالعدل ، مخبراً به ، أمراً به ؛ كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط ، وهي أعدل من كل شهادة ، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم ، وهذه الشهادة أعظم الشهادات .

ولفظ القيام بالقسط كما يتناول القول يتناول العمل ، فيكون التقدير : يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم ، فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً ، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد ، وأن غيره لا يستحق العبادة ، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء ، وأن المشركين به في النار ، فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة ، وجزاء المشركين بالنار ؛ كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة ، وكان قوله : قائماً بالقسط تنبيهاً على جزاء المخلصين والمشركين ، كما في قوله : ((أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)) [الرعد ٣٣] .

قال طائفة من المفسرين منهم البغوي نظم الآية : (شهد الله قائماً بالقسط) ومعنى قوله : قائماً بالقسط أي بتدبير الخلق ، كما يقال : فلان قائم بأمر فلان ، أي يدبره ويتعاهد أسبابه ، وقائم بحق فلان ، أي مجاز له ، فالله تعالى مدبر رزاق مجاز بالأعمال .

وإذا اعتبر القسط في الإلهية كان المعنى : "لا إله إلا هو قائماً بالقسط" أي هو وحده الإله ، قائماً بالقسط ، فيكون وحده مستحقاً للعبادة ، مع كونه قائماً بالقسط ، كما يقال : أشهد أن لا إله إلا الله واحداً أحداً صمداً ، وهذا الوجه أرجح ، فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له ، على أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط .

والوجه الأول لا يدل على هذا ، ولأن كونه قائماً بالقسط كما شهد به أبلغ من كونه حال الشاهد ، وقيامه بالقسط يتضمن أن يقول الصدق ، ويعمل بالعدل ، كما قال : ((وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)) [الأنعام ١١٥] ، وقال هود : ((إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

[هود ٥٦] ، فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه .

والاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من : النبيين ، والصديقين ، والشهداء الصالحين . صراطهم هو العدل والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل ، مخالف للقيام بالقسط والعدل .

ثم قال تعالى : ((لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) ، ذكر عن جعفر بن محمد أنه قال : الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم . أي قوله : ((لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) . معنى الأولى هو ذِكْرُ أن الله شهد بها ، فقال : ((شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)) والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولو العلم ، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها ، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي . فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو . فالأولى خبر عن الله بالتوحيد لنفسه ، وهذه (٣) خبر عن الله بالتوحيد .

وختمها بقوله : ((الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) والعزّة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة . تقول العرب : عزَّ يَعزُّ بفتح العين إذا صلب . وعزَّ يَعزُّ بكسرهما إذا امتنع . وعزَّ يَعزُّ بضمها إذا غلب . فهو سبحانه في نفسه قوي متين ، وهو منيع لا ينال . وهو غالب لا يغلب .
والحكيم يتضمن : حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله ، فإذا أمر بأمر كان حسناً ، وإذا أخبر بخبر كان صادقاً ، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً ، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله .

- ٤ -

الأصول التي تضمنتها الآية :

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه العزيز الحكيم . فتضمنت : وحدانيته المنافية للشرك ، وعدله المنافي للظلم ، وعزته وحكمته المنافية للذل والسهة ، وتنزيهه عن الشرك والظلم والسهة ، وفيها إثبات التوحيد ، وإثبات العدل ، وإثبات الحكمة ، وإثبات القدرة .

[استطرد في الرد على : المعتزلة ، والجهمية ، والجبرية ، ودعاة توحيد الوجود] .

- ٥ -

وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ، ودلالته لهم ، وتعريفهم بما شهد لنفسه ؛ فلا بد أن يعرفهم أنه شهد ، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك ، ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة - كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ، ولم تقم بها حجة - .

شروط الشهادة :

والشهادة لا بد فيها من : علم الشاهد ، وصدقه ، وبيانه . لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور ، ولهذا ذم من يكتم ويحرف ، فقال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَّ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)) [النساء ١٣٥] .

وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : "البَّيعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بَوْرُكٌ لَّهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكُتِمَا مُحَقَّتْ يَرْكَةُ بَيْعِهِمَا" (٤) .

وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ، ليعلموا أنه قد شهد فهو قد بينها بالطريقتين : بالسمع والبصر . - فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ، ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك حاصل بآياته ، فإن آياته هي دلالاته وبراهينه التي بها يعرف العباد خبره وشهادته ، كما عرفهم بها أمره ونهيه ، وهو عليم حكيم ، فخبيره يتضمن أمره ونهيه ، وفعله بين حكمته .

فالأنبياء إذا أخبروا عنه بكلامه عرف بذلك شهادته وآياته القولية ، ولا بد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه ، وذلك قد عرّف بآياته التي أيد بها الأنبياء ، ودلّ بها على صدقهم ، فإنه لم يبعث نبياً إلا بأية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز ، كما قال : ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)) [الحديد ٢٥] ، أي بالآيات البينات .

وقال : ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [النحل ٤٤] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" (٥) .

فالأيات والبراهين التي أرسل بها الرسل دلالات الله على صدقهم دلّ بها العباد . وهي شهادة الله بصدقهم فيما بلغوا عنه ، والذي بلغوه فيه شهادته لنفسه فيما أخبر به .

وهو سبحانه اسمه المؤمن ، وهو - في أحد التفسيرين - المصدق ، الذي يصدق أنبياءه فيما أخبروا عنه بالدلائل التي دل بها على صدقه .

ب- وأما الطريق العياني ، فهو : أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي - الذي بلغته الرسل عن الله - حق كما قال تعالى : ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))

[فصلت ٥٣] ، أي أو لم يكف بشهادته الخبرة بما علمه ، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول ، فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به ، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافياً ؛ وإن لم ير المشهود به ، وشهادته قد علمت بالآيات التي دلّ بها على صدق الرسول ، فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة التي تدلّ على أن القرآن حق ، بل قد يعلم ذلك بما علّم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى وكلامه .

وكذلك ذكر الكتاب المنزل ، فقال : ((بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)) [العنكبوت ٤٩] ، فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، فإنه من أعظم الآيات البينة الدالة على صدق من جاء به ، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره ، فإنه هو الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، والحكم ، وهو الدعوى ، وهو البينة على الدعوى ، وهو الشاهد والمشهود به .

وأما كون سبحانه صادقاً ؛ فهذا معلوم بالفطرة الضرورية لكل أحد ، فإن الكذب من أبغض الصفات عند بني آدم ، فهو سبحانه منزّه عن ذلك ، وكل إنسان محمود يتنزّه عن ذلك ، فإن كل أحد يذم الكذب ، فهو وصف ذم على الإطلاق .

وأما عدم علم الإنسان ببعض الأشياء ، فهذا من لوازم المخلوق ، ولا يحيط علماً بكل شيء إلا الله ، فلم يكن عدم العلم عند الناس نقصاً كالكذب .

فلهذا بين الرب علمه بما يشهد به ، وأنه أصدق حديثاً من كل أحد ((وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)) [الروم ٢٧] ، وهو يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته . ومن عنده علم الكتاب ، وهم أهل الكتاب ، فهم يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ، فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به ، كالأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن الشرك ، والإخبار بيوم القيامة ، والشرائع الكلية ، ويشهدون أيضاً بما في كتبهم من ذكر صفاته ، ورسالته وكتابه ، وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وهي : الآيات والبراهين الدالة على صدقه ، وشهادة نبي آخر - قد علم صدقه - له بالنبوة .

فذكر هذين النوعين بقوله : ((قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)) [الرعد ٤٣] ، فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي في آياته وبراهينه ، وهذه يعلم بها صدقه بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله .

وكذلك قوله : ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)) [الأنعام ١٩] ، فقوله : قل الله ؛ فيها وجهان :

قيل : هو جواب السائل ، وقوله : شهيد ؛ خبر مبتدأ ، أي : هو شهيد .

وقيل : هو مبتدأ ، وقوله : شهيد ؛ خبره ، فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام .
و "الأول" على قراءة من يقف على قوله : قل الله .

و "الثاني" على قراءة من لا يقف ، وكلاهما صحيح : لكن الثاني أحسن وهو أتم .
وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة ، فلما قال : ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً)) ؟ عُلِمَ أن الله أكبر شهادة من كل شيء ، فقيل له : ((قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)) ، ولما قال : ((اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)) كان في هذا ما يغني عن قوله : إن الله أكبر شهادة . وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله ((أَكْبَرُ شَهَادَةً)) بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم ؛ فإن هذا مما يعلم بالنص والاستدلال ، فينظر: هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه ؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه ؟ وإذا نظر في ذلك ؛ علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ؛ وبما بين أنه رسول صادق .

ولهذا أعقبه بقوله : ((وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)) [الأنعام ١٩] ، فإن هذا القرآن فيه الإنذار ، وهو آية شهد بها أنه صادق ، وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

وفي هذه الآية : ((قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)) ونظائرها ذكر سبحانه أنه شهيد بيني وبينهم ، ولم يقل : شاهد علينا ، ولا شاهد علي ، لأنه ضمن الشهادة الحكم ، فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم ، والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة ، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة ، وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه ، ويعامل المحق بما يستحقه ، والمبطل بما يستحقه .
وهكذا شهادة الله بين الرسول واتباعه ، وبين مكذبيه ، فإنها تتضمن :

أ- حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة .

ب- ويحكم له أيضاً بالنجاة والنصر ، والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)) [الفتح ٢٨] ، فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ؛ ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ، ويكون منصوراً ، كما قال تعالى : ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ)) [الحديد ٢٥] ، فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله : ((شَهِدُ اللَّهُ)) .

قال مجاهد والفراء وأبو عبيدة : شهد الله ؛ أي حكم وقضى ، لكن الحكم في قوله : بيني وبينكم ؛ أظهر ، وقد يقول الإنسان لآخر . فلان شاهد بيني وبينك ، أي يتحمل الشهادة بما بيننا ، فالله يشهد بما أنزله ويقول ، وهذا مثل الشهادة على أعمال العباد ، ولكن المكذبين ما كانوا ينكرون التكذيب ، ولا كانوا يتهمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة ، فيكون الشهيد يتضمن الحكم أثبت وأشبه بالقرآن . والله أعلم .

وكذلك قوله : ((لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِدًا)) [النساء ٦٦] ، فإن شهادته بما أنزل إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه ، وأنه أنزله بعلمه ، فما فيه من الخبر هو خير عن علم الله ليس خبراً عمن دونه ، وهذا كقوله : ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ)) [هود ١٤] ، وليس معنى كونه أنزله مجرد أنه هو معلوم له - فإن جميع الأشياء معلومة له ، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق - لكن المعنى : الذي أنزله فيه علمه ، كما يقال : فلان يتكلم بعلم ، ويقول بعلم ، فهو سبحانه أنزله بعلمه ، كما قال : ((قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)) [الفرقان ٦] ، ولم يقل : تكلم به بعلمه ، لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض

. فإذا قال : ((أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)) تضمن أن القرآن المنزل إلى الأرض فيه علم الله ، كما قال : ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ)) [آل عمران ٦١] ، وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه ، منه نزل ولم ينزل من عند غيره ، لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم - ونفسه هي ذاته المقدسة - إلا أن يعلمه الله بذلك ، كما قال المسيح -عليه السلام-: ((تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)) [المائدة ١١٦] .

وقال : ((فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)) [الجن ٢٦] ، فغيبه الذي اختص به لا يُظْهِرُ على أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به . وكذلك قال في [سورة هود]: ((فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) [الطور ١٣] ، لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله : ((فليأتوا بحديث مثله)) [الطور ٣٤] ، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فعجزوا عن ذلك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا ، فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله ، نزله بعلمه ، لم ينزل بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله .

وقوله : ((قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)) [الفرقان ١٦] ، لأن فيه (من) الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله ، فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله ، لكن تضمن من الإخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله ، فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله .

وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدلنا بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم ، وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير جهته وذلك كإخباره بالمستقبلات فوعدت كما أخبر ، وكإخباره بالأمر الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم ، وإخباره بأمر هي سر عند أصحابها كما قال : ((وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا)) إلى قوله : ((نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)) فقوله : ((أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)) استدلال بأخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال : هو ((إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ)) [التحريم ٣] ، وقوله : ((أَنْزَلَهُ)) استدلال على أنه حق ، وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي ، وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله .

ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم ، وما تنطق به الألسن من ذلك ، كما في الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرَّ عليه بجنزة فأتوا عليها خيراً ، فقال : "وجبت ، وجبت" ومرَّ عليه بجنزة فأتوا عليها شراً ، فقال : "وجبت ، وجبت" قالوا: يا رسول الله ؟ ما قولك : وجبت وجبت ؟ قال : "هذه الجنزة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنزة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله في الأرض (٦) فأضافهم إلى الله تعالى .

والشهادة تضاف تارة إلى من يشهد له . وإلى من يشهد عنده ، فتقبل شهادته ، كما يقال : شهود القاضي ، وشهود السلطان ، ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم ، وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحمَّله من الشهادة ، ليوذيتها عند غيره ، كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقرارهم (٧) .

فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله وفعله ، ويؤدون الشهادة عنه ، فإنهم إذا رأوا من جعله الله براً تقياً يشهدون أن الله جعله كذلك ، ويؤدون عنه الشهادة ، فهم شهداء الله في الأرض ، وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به ، وينطقون به ، وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك ، فهذا أيضاً من شهادته .

وقد قال تعالى: ((لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)) [يونس ٦٤] ، وفسر النبي - صلى الله عليه وسلم - البشرى بالرؤيا الصالحة ، وفسرها ببناء الناس وحمدهم، والبشرى خبر بما يسر ، والخبر شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى . والله سبحانه أعلم.

الهوامش :

- *- اخترنا هذا الموضوع نموذجاً لأسلوب ابن تيمية في التفسير ، وقد تصرفنا قليلاً بحذف بعض الجمل المكررة ، وبعض الفقرات ، حتى يكون الموضوع أقرب إلى طبيعة المقال . وقد حرصنا على نشره في حلقة واحدة مع طوله لأنه وحدة معنوية واحدة في معنى الشهادة . ومن أراد الرجوع إليه كاملاً فهو في مجموع الفتاوى ١٦٨،/١٤
- ١- مجمل معنى هذه الفقرة أن من معاني الشهادة أن يشهد الشاهد لنفسه دون طلب ذلك منه ، ودون إعلان منه لشهادته أمام غيره .
- ٢- أورده البخاري في (كتاب الجهاد) ٤١/٤ .
- ٣- أي الثانية .
- ٤- البخاري ٧٦/٣ (كتاب البيوع ، باب إذا بين البيعان ولم يكتما) ، ومسلم في ٦٦٤/١ (كتاب البيوع ، باب الصدق في البيع) .
- ٥- البخاري ٢٢٤/٦ (كتاب فضائل القرآن) ومسلم (كتاب الإيمان) .
- ٦- البخاري ١٢١/٢ (كتاب الجنائز) ، ومسلم في (كتاب الجنائز) ٣٧٩/١ .
- ٧- جمع إقرار .

مصطلحات وتعريفات

(٢)

عثمان جمعة ضميرية

٢- السلف :

- * قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (١):
 "سلف، السين واللام والفاء، أصل يدل على تقدّم وسبق . من ذلك السلف ، الذين مضوا، والقوم السلف: المتقدمون. والسلاف: السائل من عصير العنب قبل أن يعصر ، والسلفة : المعجل من الطعام قبل الغداء.."
 وقال الراغب الأصفهاني في "المفردات" (٢):
 "السلف : المتقدم، قال تعالى : ((فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ)) [الزخرف ٥٦] ، أي: معتبراً متقدماً ، وقال تعالى : ((فَلَهُ مَا سَلَفَ)) [البقرة ٢٧٥] ، أي يتجافى عما تقدم من ذنبه.. ولفلان سلفٌ كريم : أي آباء متقدمون ، جمعه أسلاف وسلوف.."
 وقال الدامغاني في "الوجوه والنظائر لألفاظ القرآن":
 "السلف في القرآن على وجهين : فوجه منهما ، السلف: العبرة والعظة ، كقوله تعالى ((فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا)) [الزخرف ٥٦] ، يعني عظة لمن يأتي بعدهم .
 والوجه الثاني، السلف: ما تقدم من الزمن الأول، كقوله تعالى ((وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)) [النساء ٢٣] ، أي : مضى من الزمن الأول" .
 * وفي الاصطلاح الشرعي : تطلق كلمة السلف بإطلاقين أحدهما خاص والآخر عام .

ففي الإطلاق الخاص عرّفه كل طائفة من العلماء بحسب مذهبهم ، فقال علماء الحنفية: السلف من أبي حنيفة إلى محمد بن الحسن (١٨٩هـ) ، ويقابله الخلف : من محمد بن الحسن إلى شمس الأئمة الحلواني (٤٤٨هـ) .

ومن ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل يقول: السلف: الإمام أحمد بن حنبل، ومَنْ تقدّمه من الصحابة والتابعين .

وعلماء الشافعية والمالكية وعلماء الكلام، يقولون: السلف ما كان قبل الأربعمائة ، والخلف ما كان بعد الأربعمائة(٣) .

* وفي الإطلاق الشرعي العام ، يراد بالمسلف : كل من يُقلّد مذهبه في الدين ويُقتفى أثره فيه ، كالصحابه والتابعين والأئمة المجتهدين (٤) .

ثم أصبح مع التطور التاريخي لظهور الفرق الإسلامية منحصرأ في المدرسة السلفية التي حافظت على العقيدة والمنهج الإسلامي طبقاً لفهم الأوائل الذين تلقّوه جيلاً بعد جيل ، وأبرز سماتهم التمسك بالمنهج النقل ؛ ولهذا عرفوا في البداية بأنهم "أهل الحديث" للتمييز بينهم وبين من انسلخ عن هذا المنهج من الشيعة والمعتزلة والخوارج وغيرهم . كما أنهم يعرفون أيضاً بأنهم "أهل الأثر" . وهذه النسبة إلى الأثر، تعني: الحديث وطلبه وأتباعه(٥) .

* ومن هذه الإطلاقات لكلمة السلف نخلص إلى أن هذا اللفظ يشمل : الصحابة والتابعين، وتابعيهم من الأئمة الذين يقتدى بهم، كالأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري ، وابن عيينة ، وحمام بن سلمة، وحمام بن زيد، وابن أبي شيبه، والبخاري ومسلم، وأصحاب السنن الأربعة.. وغيرهم من الأئمة الأجلاء الأعلام الذين شهد لهم بالإمامة في الدين والورع والتقوى ظاهراً وباطناً ، وتلقى الناس كلامهم بالقبول والعمل به خلفاً عن سلف (٦) دون اعتبار لزمن معين . وعندئذ يتحدد مذهب السلف بما كان عليه الصحابة الكرام والتابعون وتابعوهم من الأئمة المذكورين (٧) .

* ويخرج عن السلف كل من رُمي ببدعة أو اشتهر بلقب غير مرضي من الفرق المخالفة للسنة ولمذهب الصحابة وما كانوا عليه، مثل: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، والجبرية، والمعتزلة، والمشبهة أو المجسّمة وسائر الفرق الضالة، فهؤلاء ليسوا على ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم -، بل هم مخالفون لهم، ومخالفون لأهل السنة والجماعة من فقهاء الأمة وعلمائها الذين يقتدى بهم في الدين(٨) .

وكذلك : ليس من مذهب السلف - رحمهم الله - حمل الناس على اعتقاد لم يعتقده الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ولا امتحان الناس بما لم يمتحنهم الله تعالى به ، والعمل على الفتنة وتفريق صفوف الأمة .

وليس من مذهب السلف - وإن ادّعاه قوم - أن يُطلق إنساناً لسانه بالطعن والشتم على الأئمة المتقدمين ، ولا سيما الأئمة الأربعة ، ويحط من قدرهم بنسبتهم إلى الجهل أو الخطأ أو تعدد التغيير في الأحكام ، ويستدل على مدّعه بأية يأخذها على ظاهرها دون أن يفقه معناها ، أو يستدل بحديث لا يدري قول الأئمة فيه ، ويدعو الناس والعوام إلى الأخذ من القرآن أو الحديث من غير اتباع لقول أحد من الأئمة ، ويقول : هذا كتاب الله وسنة رسول الله بين أيدينا ، فأبي حاجة بنا إلى تقليد فلان أو فلان ، وهم رجال ونحن رجال !

هذا القول ليس بحق ، أو هو حق أريد به باطل ، بل هو محض باطل أراد به صاحبه تشكيك الناس ، أو الوصول إلى الشهرة بينهم ، إذ ليس بوسع كل أحد أن يأخذ أي حكم يريده من القرآن أو السنة إلا بمراجعة ما ورد من الأئمة في ذلك الحكم ، فهم أقرب عهداً بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ،

وأكثر علماً وإحاطة بما جاء عنه ، وفي الآيات والأحاديث ما هو منسوخ ، وما هو مقيد ، وما هو محمول على غيره ، كما هو مذكور في علم الأصول .
وليس من مذهب السلف أيضاً : تأويل القرآن الكريم بالرأي الفاسد ، دون النظر إلى ما ورد عن أئمة اللغة وما فسر به الصحابة وما ورد فيه من آيات وأحاديث ، وإلا فإنه يأخذ بعض الآيات والأحاديث ، يضرب بعضها ببعض ، أو يأخذ بعض الأدلة ويترك سائرهما ، أو يترك المحكم من النصوص في القرآن والسنة ، فيأخذ ما يتفق وعقله وينبذ ما لا يتفق معه أو لا يعرف وجهه ومعناه ، أو يحمل نصوص الشرع على وفق هواه ومذهبه الذي ينتحله باطلاً (٩) .

٣- أهل الحديث :

* الحديث في اللغة : ضد القديم ، ويستعمل في كثير من الكلام وقليله ، وهو اسم من التحديث بمعنى الإخبار . ثم سمي كل ما صدر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي أو خلقي .

وبعض العلماء يضيف إلى ذلك : ما أضيف إلى الصحابي أو التابعي أو ما صدر عنهما . وعندئذ تصبح كلمة الحديث مرادفة للخبر عند علماء الحديث . وهو مرادف لكلمة "الأثر" عند بعض العلماء (١٠) .

وتقدم - فيما سبق - أن الفرق بين السنة والحديث : أن الحديث كل واقعة نسبت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ولو كان فعلها مرة واحدة في حياته الشريفة ، أو رواها عنه شخص واحد .

* وأما السنة : فهي الطريقة المتواترة للعمل بالحديث بل القرآن أيضاً . فقد ورد - مثلاً - في القرآن الكريم : الأمر بإقامة الصلاة ، وبين فيه بعض تفاصيلها أيضاً ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - بموجب ذلك قال : "صلُّوا كما رأيتموني أصلي" (١١) . واستمر على تلك الكيفية وكذلك الصحابة والتابعون وسائر المسلمين . وهكذا الأمر في الصيام والزكاة والحج وسائر الأوامر القرآنية . فالصورة العلمية التي رسمها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لألفاظ القرآن هي السنة ، وهي في الحقيقة تفسير عملي للقرآن (١٢) .

* فإذا تعرفنا على معنى الحديث ، فإننا نستطيع أن نتعرف على : "أهل الحديث" ؛ وهم الذين سلخوا طريق الصالحين واتبعوا آثار السلف من الماضين ، وكان لهم عناية خاصة بأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : جمعاً وحفظاً ورواية وفهماً وعملاً في الظاهر والباطن ، فكانوا بذلك ألزم الناس لسنن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لا يقدمون بين يديه ، ولا يرفعون صوتهم فوق صوته بتقديم رأي أو هوى أو استحداث بدعة .

ومنهم : كلُّ عالم فقيه ، وإمام رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ، وقارئ متقن وخطيب مُحسن ، وهم الجمهور العظيم ، وسبيلهم السبيل المستقيم ، لأنهم أخذوا دينهم وهديتهم من الكتاب والسنة وطريق النقل ، فأورثهم ذلك اتفاقاً في الدين واتتلاً ، رغم بعد ديارهم واختلاف أزمانهم (١٣) .

* وكان المتقدمون يطلقون مصطلح "أهل الحديث" على المدرسة التي تقابل أهل الكلام ، أي مقابل علماء الكلام الذين عابهم السلف لما أدخلوا في الاعتقاد من مصطلحات وأفكار غريبة عن المنهج الإسلامي ، ولذلك اشتد النكير عليهم من علماء السنة . وهم أنفسهم - أي علماء الكلام - كان يطلق عليهم "أهل الرأي" (١٤) . لأنهم يقدمون آراءهم على الكتاب والسنة ، ويعطون عقولهم سلطة الحكم على النصوص الشرعية . وهؤلاء هم من أعداء السنن حقيقة كما جاء وصفهم عن عمر - رضي الله عنه - .

* ثم أصبحت كلمة "أهل الحديث" تطلق بمعنى أخص على فئة معينة ممن يعنون بدراسة الحديث النبوي رواية ودراية، أو رواية فحسب، أو ممن ينتسبون إلى هذا الأمر ويجمعون عليه نظراً ، ولو لم يكن لهم نصيب يذكر من العلم بالحديث النبوي الشريف .
وينبغي التنبيه إلى تغير المصطلحات بمرور الأزمنة، واختلاف مدلولاتها بين عصر وآخر عند كثير من الناس .

وإذا كان الأئمة - يرحمهم الله - يطلقون على أهل الحديث - في الماضي - أنهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة ، فإن اصطلاح أهل الحديث قد ضاقت دائرته عند الكثيرين حتى صار علماً على فئات تكون من أهل الحديث، ولكنها ليست أهل الحديث.
ولذلك لا يحسن إطلاق (الفرقة الناجية) على فئات محددة تتسمى بأهل الحديث ، وإن كانت هي - فعلاً - من أهل الحديث ، بل ينبغي إعادة هذا الاصطلاح إلى مفهومه الموسع الصحيح (١٥) .
* وإذا لاحظنا فيما سبق أن مفهوم "أهل السنة والجماعة" يلتقي مع مفهوم "السلف" ، فإن مفهوم "أهل الحديث" أو "أهل الأثر" بالمعنى الواسع لا يخرج عنهما كذلك، ولذلك لم يكن مذهب السلف أو أهل السنة مذهباً جديداً مبتدعاً ، بل هو المنهج الذي كان عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان ، وكذلك سائر الأئمة ، وإنما تميزوا - فيما بعد - بهذا اللقب أو التسمية في مقابل أهل البدع والأهواء والفرق المخالفة ، ومن هنا جاء الحديث عن عقيدة أهل السنة والجماعة .
فإذا لم يكن ما يدعو للمقابلة والتميز لعدم وجود ما يناهضها ، يعود الحديث عندئذ عن العقيدة الإسلامية ، هكذا بعامة ، والله الموفق .

الهوامش :

- ١- ٩٥/٣ .
- ٢- ص ٢٣٩ .
- ٣- نموذج من الأعمال الخيرية ، لمحمد منير الدمشقي ص (١٠-١١) ، وانظر : الكليات لأبي البقاء ٣٤/٣ .
- ٤- انظر : كشف اصطلاحات الفنون : ١٥/٤ ، الكليات : ٣٤/٣ .
- ٥- قواعد المنهج السلفي ، للدكتور مصطفى حلمي ص (٢٣) .
- ٦- انظر: لوامع الأنوار البهيّة : ٢٠/١ ، ونموذج من الأعمال الخيرية ، ص (١١ - ١٢) ، الحجة في بيان المحجة ٤٧٣/٢-٤٧٦ .
- ٧- المراجع السابقة ، وانظر : السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص (١٠-١١) ، أهل السنة والجماعة ، معالم الإنطلاقة الكبرى ص (٥١-٥٢) .
- ٨- المراجع السابقة ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص (٣١٨-٣٢٢) .
- ٩- انظر في هذه المعاني السابقة : نموذج من الأعمال الخيرية ص (١٢-١٧) ، الوصية الكبرى لابن تيمية ص (٦٣-٦٤) ، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم : ١٦٢/٣-١٦٣ ، الاعتصام للشاطبي : ٢٢٠/١ ، ما بعدها .
- ١٠- انظر : الباعث الحثيث لابن كثير ص (١٧) .
- ١١- اخرج البخاري عن مالك بن الحويرث ، كتاب الأذان : ١١١/٢ وفي الأدب : ٤٣٨/١٠
- ١٢- تحقيق معنى السنة للسيد سليمان الندوي ص ٢٠-٢٢ .

- ١٣- انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢-٤ ، الحجة في بيان المحجة للأصفهاني : ٢٢٠/٢-
 ٢٣٦ ، شرف أصحاب الخطيب للبغدادي ص ٨-١١ ، فتاوى شيخ الإسلام : ٩١/٤-٩٥ ، قواعد
 الحديث للقاسمي ص ٦٠ .
- ١٤- وإن كانت تطلق أيضاً على مدرسة الكوفة الفقهية ، التي يمثلها الحنفية فيما بعد ولكن ليس
 المراد بهم عند المقابلة بأهل الحديث فقهاء الحنفية ، وإنما يراد بهم المعتزلة وأهل الكلام . ويؤيد
 هذا أن مدرسة الكوفة والحجاز كلتاهما (الحنفية وأهل الحديث) تعتمدان على القرآن والحديث ،
 وكذلك يقولون بالرأي بدرجة متقاربة وصور متشابهة ، ويشهد له أيضاً : أن ابن قتيبة -رحمه
 الله- ، وهو صاحب الهجوم الشديد على أهل الرأي ، عد منهم - في كتابه : المعارف - الأوزاعي
 ، وسفيان الثوري ، والإمام مالكاً ، وهؤلاء ليسوا من مدرسة الحنفية أو الرأي على ما هو
 مشهور .
- انظر: الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث للدكتور عبد المجيد محمود ص ٢١ وما بعدها ،
 المعارف لابن قتيبة ص ٤٩٤-٤٩٩ .
- ١٥- صفة الغرباء ، للشيخ سليمان العودة ص ١١٨ .

كيف ننمي الملكة الفقهية (الاستنباط) ؟

ستر الجعيد

تمهيد:

الفقه في الدين أمر مهم جداً، فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وبه دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس. وحصوله ليس بالأمر الهين، بل يحتاج إلى جهد وصبر ومعاناة، مع توفيق الله للعبد أولاً وأخيراً.

لكن الفقه يبدأ قليلاً فينمو وتكبر شجرته حتى تؤتي ثمارها في كل حين بإذن الله ولما حان الفقه قوياً وفتياً كانت الأمة في قمة مجدها، لكنها نزلت إلى الحضيض بقدر ما فقدت من الفقه في الدين ومعالجة ما يعترضها من مشكلات على ضوء كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وحاجتنا ماسة إلى تنمية الملكة الفقهية والاستنباط لأنها تنفد وتنمو، فالإنسان لا يولد فقيهاً فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وقد بذل العلماء في هذا الشأن جهوداً موفقة ما بين علماء للفقه فرعوا الفروع من الأدلة، وافترضوا المسائل، وأودعوا الكتب، وحاولوا أن يستنبطوا لكل مسألة يتصورون وقوعها، أو هي واقعة حكماً، حتى حققوا أثراً تبعث على الفرح والارتياح ؟

وأقبل فريق منهم على حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجعلوه عمدتهم يتحرون ثبوته بل ينتقون أعلاه، ثم يستنبطون منه ما يوفقههم الله لفهمه، وكلا الفريقين على خير، لكن الفريق الثاني كان إلى الاحتياط أقرب وإلى قوة المصدر كذلك وإعمال الذهن في كلام المعصوم. فهم يحققون بطريقتهم تلك أثراً تنعكس على الفقيه والمستنبط وإن كان كلاهما مجتهد مصيب له أجران، أو مخطئ له أجر واحد.

وسنسلك في هذه المقالات مسلك الفريق الذي عول على الأحاديث الصحيحة فأعمل ذهنه للاستنباط منها لحاجتنا الماسة إلى الفقه في الدين بهذه الطريقة، وكم نرى من الآثار السيئة نتيجة لفقدان الفقه الصحيح بنوعيه في أمورنا كلها.

هدف هذه المقالات :

وليس من هدف هذه المقالات بيان المسألة من حيث الرجحان أو ضده، فتلك لها مشرب آخر وهو استعراض الأدلة والمقارنة بينها، وهو مقصد لا شك مهم ويكون سبباً لنمو الاستنباط لكنه ربما جعل الإنسان يتحير في خضم الأدلة والمعارضات بين الأقوال، فيضعف تمييزه بل ربما ألم به شيء من الملل.

أما الطريقة التي نتبعها في هذه المقالات فهي أقرب إلى التشويق منها إلى الملل، حيث تعتمد على إيراد بعض الأدلة الصحيحة من أعلى مصادر الصحيح، ثم التعقيب عليها بما فيها من فوائد فقهية وتوجيهات تربوية بصورة مختصرة. وهذه الطريقة ليست جديدة فقد استخدمها كثير من العلماء، ولا سيما أئمة الحديث، وليست الفوائد مرتبة حسب سياق الدليل بل فيها نوع من التقدم والتأخير.

أ- نص الحديث :

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن أناساً من عبد القيس قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا :

- يا نبي الله : إنا حي من ربيعة، وبيننا وبينك كفار مضر، ولا نقدر عليك إلا في أشهر الحرم، فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا، وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به.

- فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم. وأنهاكم عن أربع : عن الدُّبَاءِ وَالْحَنْنَمِ وَالْمُرْقَاتِ وَالنَّقِيرِ. قالوا: يا نبي الله ما علمك بالنقير ؟ قال: بلى، جذع تنقرونه فتقذفون فيه من الفطيعاء - قال سعيد: أو قال: من التمر، ثم تصبون فيه من الماء، حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف، قال وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال : وكنت أخبرها حياً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

فقلت : فمِمَّ نشرب يا رسول الله، قال : في أسقية الأدم التي يلاث على أفواهاها، قالوا : يا رسول الله : إن أرضنا كثيرة الجرذان ولا تبقى فيها أسقية الأدم. فقال نبي الله -صلى الله عليه وسلم- : وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، قال: وقال نبي الله -صلى الله عليه وسلم- : لأشجَّ عبد القيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة(١).

ب - فيه فوائد:

- بدء الوصايا بالتوحيد.
- الإخبار بالقدرات والإمكانات المعينة على الخير والموانع منه.
- الحرص على البحث عن طريق الجنة مع كثرة المعوقات فكيف عند زوالها وخفتها ؟
- أسلوب الحصر ليفهم المتلقي.
- إيراد الحجة على الأمور الواضحة.
- ضرورة فهم الواقع لتنزيل الفتوى عليه ولمقاصد أخرى.
- التربية بقدر حاجة المتلقي.
- التربية بالمدح وصيغته وصيغة المرغوب فيها.
- من الأوصاف ما التصق بالموصوف فلا يعني ذكرها المشروعية.

الهوامش:

١- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، مسلم بشرح النووي ١/١٨٩-١٩٢، ط دار إحياء التراث العربي.

مراجعات في عالم الكتب
السيرة النبوية
كما جاءت في الأحاديث الصحيحة
- قراءة جديدة (*) -

تأليف: محمد الصوياني

عرض: د. مالك الأحمد

حقاً، إنها قراءة جديدة للسيرة النبوية، إنها ليست أحداثاً فحسب إنها قصة ممتعة تجذبك من أولها إلى آخرها إنها ((قصة طفل طهور كالبرد، ولد يتيماً، واستمر اليتيم يلاحقه ويلحق طفولته في طرقات مكة ودروبها.. يذيقه المرارة.. يفجعه بأهله وأحابه..)).

يصور لك الكتاب أحداث السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث النبوية الصحيحة - بطريقة أدبية مشوقة، ويربط بين أحداثها بعباراته اللطيفة الحنونة. فتعيش معها كأنك في ذلك العهد وكأنك من أفراد ذلك المجتمع. إنها ((سيرة لم تكن أبداً ماضياً أبداً بل شعلة توقد شمس الحياة ودماء تتدفق في عروق المستقبل والأجيال)).

أما عن طريقته الجديدة فيقول: ((أحاول في هذه القصة - السيرة - أن أبسط ما أمكن.. أن أجعل هذه الأحداث سهلة في تناول الجميع خاصة من لا يبحثون عن التعقيد أو التفريع، لذلك صغتها وربطت بين أحاديثها الصحيحة لتكون قصة لا روايات أحداث متفرقة فقط)). وقد وفق الكاتب في طريقته المشوقة وسنمر سريعاً على بعض فصول الكتاب.

بدأ الكاتب في أحداث السيرة من عبد المطلب جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستعرض سريعاً في تلك الفترة المبكرة قصة إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عند الحديث عن عبد المطلب وكشفه لزمزم، ثم يحدثنا عن ولد عبد المطلب عبد الله ((تربى عبد الله ذلك الطفل الوديع في قلب عبد المطلب وتربع فيه، وبلغ مبلغ الرجال دون أن يعرفه قومه بطيش أو سفه، كأني به هادئ كثير الصمت والتأمل ملء بالانتظار، ليس في حياته ما يثير، كأنه كالعالم من حوله ينتظر وينتظر، ويبحث عن زوجة له في بيوتات مكة ويسأل، فكانت أمنة بن وهب بن عبد مناف هي الحبيبة وهي الإجابة)).

ثم يحدثنا الكاتب عن وفاة عبد الله بألم وحرقة وحزن أمنة المفجوعة بزوجها الذي قبض بعيداً عنها وكانت تتحرق لعودته محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

وهكذا تمضي الأحداث ويولد سيد البشر محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - ويرد الكاتب على المغفلين والأغبياء الذين أنشأوا حول مولده الأساطير والخرافات، ويشير بعجالة إلى هذه الأكاذيب ويحقق ما جاء من روايات صحيحة في ذلك.

ثم يمضي الكاتب في رحلة السيرة من تسميته إلى رضاعته ونشأته، ونقف عند وفاة أمه حيث لا يسعك إلا أن تذرف الدمع عند قراءة ذلك الحدث كما يصوره الكاتب ((ورجعت أمنة بصغيرها إلى مكة، وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة توقفت المطايا، ونزلت أمنة عن ظهر الراحلة، ونزل صغيرها وقد تعلق بها عيناها وهي تتوجع وتئن أمامه، فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها سوى نظرات حائرة خائفة، وتزيد آلامها ويزيد أنينها وتموت أمنة وتدفن أمام عينيه، بعيداً عن مكة، بعيداً عن عبد المطلب، بعيداً عن أعمامه، تؤخذ أمنة منه وتوارى تحت أكوام التراب، ويعود باكياً وحيداً حزيناً وقد تيمم مرة ثانية)). ويصور لك الكاتب وقع الموت على قلب ذلك الصبي وذكرها في نفسه،

ثم ينقلك سنوات بعد ذلك: ((لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة، مر ذات يوم بقبرها فرؤي له بكاء لم يبكه من قبل، يقول بريدة رضي الله عنه:- (انتهى النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى، فاستقبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه- فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: هذا قبر أمنة بنت وهب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فأبى، وأدركتني رقتها فبكيت، فما رؤي ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة)).

ثم يعرج بالتفصيل على أحداث نشأة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزواجه ومبعثه بأسلوب شجي يخاطب العقل والقلب ويثير المشاعر والأحاسيس مورداً الروايات الصحيحة ضارباً صفحاً عبر الروايات الضعيفة فضلاً عن الموضوعات. ثم يبين موقف قريش من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ((ماذا تتوقعون من جيوش من الأصنام: أصنام العادات والتقاليد وشرف الآباء والأجداد، والثارات، وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرفف وفي مداخل البيوت، وحتى في خرج المسافرين. وقبل ذلك فوق الكعبة ويحلف بها وتستشار ويصلى لها ويذاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها)).

ويفصل في تعذيب قريش للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه. وتحت عنوان أول الشهداء يقول الكاتب ((إنها امرأة: أول المسلمين كان امرأة، أول اعتداء على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بيد امرأة وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة طاعنة في السن، اقتادها رجل شرس يقال له أبو جهل فاق أبا لهب قسوة وغلظة، تبقى المسكينة ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة، ثم يطعنها برمح أمم زوجها وابنها)) و((وسمية الراحلة، لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة أرادتهم قريش عبيداً، فانتزعوا حريتهم بأيديهم، عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك فعاشوا ينتفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا..)).

ثم يتابع الكاتب أخبار من أسلموا، وهجرتي الحبشة وما لاقاه المسلمون هناك، ومعاناة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع قريش. والكاتب دوماً يفصل بين كلامه والروايات المسندة كي لا يختلط كلامه بالروايات المخرجة في الحاشية والتي يحكم عليها الكاتب بما يراه من حسن أو صحة. وتتوالى الأحداث سراعاً من المجاعة في مكة، إلى حصار الشعب، فعام الحزن، فرحلة الطائف للإسراء والمعراج، فبيعتي العقبة، ثم الهجرة إلى المدينة، مفصلاً أحداثها ساعة بساعة، واصفاً حال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه وما لاقاه في طريق الهجرة حتى وصولهما إلى المدينة. رغم الجهد الكبير والطيب الذي بذله الكاتب في إخراج السيرة بهذه الصورة الرائعة، فإن الكتاب لا يخلو من هفوات نشير إليها بعجالة.

بالنسبة لتخريج الروايات، فالكاتب - رغم أنه بذل الوسع في الحكم عليها - فقد كان متساهلاً في كثير من المواضيع في تحسين الروايات رغم ضعفها عند أهل الاختصاص (انظر على سبيل المثال تفاصيل الطائف ولقاء عداس، وإسلام عمر، وقصة أم معبد، ويمكن الرجوع في تفاصيل الروايات والحكم عليها إلى كتاب (السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري). من جانب آخر حاول الكاتب أن يقحم نفسه - في مواضع قليلة - في نقد أوضاع بعض الدعاة في زماننا، رغم أن المحل غير ملائم لمثل هذا الحديث، فمثلاً عقب الحديث عن طلب قريش من النبي - صلى الله عليه وسلم - التنازل، يقول: ((فمن المتحمسين من يحمل بضعة أحاديث يغلفها بسوء ظن ويرصد من حوله ليرميه بالكفر والمروق أو الفسق والانحلال)) (ويصنف الناس إلى ملتزمين وغير ملتزمين وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم، ينسى أخوة الإسلام..)).

والكاتب في ظني لم يوفق في إحياءاته، وليس المجال ملائماً لبحث مثل هذه الظواهر، وكان الأجدر به أن يستمر في حديثه في السيرة على منهجه الذي ارتآه، وليس مقصودي أن سرد الدروس المستفادة من السيرة غير مهم - بل هو الأهم - لكن هذا الأمر ليس مستهدفاً لدى الكاتب، ولم يتبين هذا النهج، بل منهجه كما أسلفنا عرض السيرة النبوية في قالب قصصي.

الهوامش:

*الكتاب صدر عام (١٤١٢) عن مكتبة الصفحات الذهبية، الرياض في ٢١٦ صفحة.

خواطر في الدعوة الحزبية

محمد العبد

ليس هناك أضر على الدعوة الإسلامية المعاصرة من الحزبية المنغلقة الضيقة، إنها داء وبيل يفتك بالإخوة الإسلامية، فيقطع أو اصرها ويجعل صفوها كدرأ. هل يجوز للمسلم أن يكون وجهه الطلق؛ وابتسامته العريضة، وسلامه الحار لمن هو من حزبه أو جماعته؛ ولغيره العبوس والسلام البارد؟! وهل يجوز للمسلم أن يغض الطرف عن أخطاء أصحابه؛ وإذا وقع غيره في الأخطاء نفسها شهّر به وتكلم عليه؟! وإذا ذكرت له انحرافاً في الفكر أو التصور وقع به واحد منهم أتى بالمبررات وقال: هذه أخطاء؛ ولكنها لا تخدم في أصل المنهج! وبسبب هذه الحزبية تراه لا يطلع ولا يقرأ ولا يستقي إلا من طرف واحد، من كتب أصحابه وممن يوصى أن لا يقرأ إلا لهم، فيتخرج ضيق الأفق، مشوه الشخصية الثقافية، لا ينظر إلا من زاوية واحدة ولا يعرف إلا الفكر الأحادي.

كيف تغلغت هذه الحزبية إلى صفوف الدعوة؟ ومن الذي يمدّها حتى تستمر؟ لا شك أنها التريبة السيئة التي تمارس على الفرد فيقال له: نحن الأفضل، وغيرنا فيه نقص كذا ونقص كذا، وكل هذا حياً في التكثير والتجميع، فلا بد أن يشوه الطرف الآخر حتى لا يذهب الفرد إليهم، وكأننا أحزاب تتنافس على الانتخابات فهي تشتري الأصوات بالدعاية والمال.

ومن هذه التريبة أن يحال بين الفرد في أول عهده بالدعوة وتلقي العلم، وبين الجلوس إلى العلماء أو من عندهم علم وخبرة، فيربونه بأدبهم وسمتهم وتجربتهم، وإذا حيل بينه وبين هذا فهو يتلقى ممن يباشر عملية التريبة، فإذا كان ديناً وعنده علم وليس فيه حب الزعامة كانت التريبة أقرب للصواب، وإذا كان ممن يحب الزعامة أو فيه شيء من زغل العلم فعندئذ يتخرج من تحت عباءته شباب متحزون مشوهون. ولا ينجو من هذا الداء إلا من تنبه له من البداية، وعرف أن أنواعاً من التريبة ستؤدي حتماً إلى الحزبية، فخاف واحتاط لنفسه، فهو يحاسب نفسه ويلتفت وراءه ويجدد ويتجدد بين كل فترة وأخرى، حتى لا يقع في هذا الداء الذي تطاير شرره وعم بلاؤه.

البيان الأدبي
إسلامية الأدب

د. عبد الرحمن العشماوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وبعد... فإن سؤالاً واحداً يلاحقني في كل أمسية شعرية، أو ندوة أو لقاء بعشاق الأدب من الشباب، وهو.. كيف تتحقق الإسلامية في الأدب؟؟ ويتبع هذا السؤال - غالباً - عدد من الشبهات التي ما تزال تثار حول مصطلح الأدب الإسلامي، ويمكن أن أحصر تلك الشبهات فيما يلي:

- ١- عندما نقول "الأدب الإسلامي" فإننا نلغي بذلك الأدب العربي.
- ٢- الأدب الإسلامي يتعارض مع الجانب الفني للأدب، لأنه يحصر الأدب في زوايا الوعظ والإرشاد فقط، وهذا إخلال بفنية الأدب لا يمكن أن يُقبل.
- ٣- الأدب الإسلامي أدب واضح مباشر لا تتحقق به المتعة الفنية.
- ٤- عندما نقول في ظلّ التصوّر الإسلامي للأدب: "هذا أديب غير إسلامي" فإنّ هذا يجرّنا إلى تكفير الأديب المسلم الذي لا يدخل في دائرة هذا التصوّر ونحن منهيون - شرعاً - أن نكفّر مسلماً بهذه الطريقة.

٥- إن مصطلح الأدب الإسلامي بدعةٌ معاصرة، لم يقل بها أحدٌ من سلف هذه الأمة، فهل نحن أحرص على الإسلام من أولئك!؟

٦- إن الأدب الإسلامي يدعو إلى التميّز. ونحن نعيش عصر النظام العالمي الجديد الذي ينادي بثقافة عالمية موحدة.

هذه هي - على وجه التقريب الشُّبه التي تثار هذه الأيام حول مصطلح الأدب الإسلامي، وربما توجه إليه شُبهٌ أخرى، ولكنها لا تكاد تخرج عما ذكرته هنا.

وأقول: من المؤكد لدينا أنه ما من فكرة تطرح، أو مصطلح علمي أو أدبي يوضع إلا وتكون في جداره ثغرات، وتحدث أمامه وقفات نقدية وتثار حوله شبهاتٌ، بل لعل تلك النقذات الموجهة، وهذه الشبهات المثارة هي التي تتكفل بسدّ ثغرات المصطلح وتصحيح ما قد يحدث في دلالاته من أخطاء.

ولا بد من اتساع صدور أصحاب المصطلح لما يوجّه إلى مصطلحهم من نقد مهما كانت الدوافع وراء ذلك النقد.

ولعلّ من المفيد هنا أن أذكر الإخوة القراء بأهمية فهم المصطلح فهماً واعياً من قبل الناقد له حتى يبني أحكامه على قاعدة صحيحة. ولو راعى كل ناقدٍ هذا الجانب لسلم الأدب من شرّ كثير من "المنافشات الجدلية" التي لا فائدة منها.

وأعود إلى موضوع الأدب الإسلامي فأقول: إنّ هذا المصطلح يقوم على قاعدةٍ راسخة من التصوّر الإسلامي الصافي للكون والحياة والإنسان، وهو كما نعلم تصوّر شامل فسيح، لا يترك جانباً من جوانب الحياة دون تأمل وتفكّر، كما أنه تصوّر سليم من آفات الأفكار والمذاهب والمعتقدات البشرية المحرّفة القائمة على "قرارات طائشة" يصدرها العقل البشري العاجز عجزاً ظاهراً أمام كثير من جوانب الكون الخفية "فوق كل ذي علم عليم".

ونعني بالتصوّر الإسلامي، تلك الرؤيا الشاملة التي تمكّن الأديب المسلم من رؤية ما يجري في هذا الوجود بصفاء، بل هي - الرؤية - التي تفتح أمام الأديب نوافذ الحياة الدنيا، والآخرة، من خلال تلك الروح المسلمة التي تتميز "بشفافية" لا نظير لها(١).

وهذا التصوّر الإسلامي لا يتأتى للنفوس والعقول المريضة التي فتحت أبوابها لجراثيم الأفكار والتصورات المنحرفة عن منهج الإسلام. كما أنه لا يحول دون التأمل الشامل لكل ما يدور في هذا الوجود، بل إنه يحقق هذا التأمل وما هو أبعد منه مما ينتظر الإنسان في الآخرة.. ولهذا كان الأديب الإسلامي متميزاً عن غيره من أصحاب الاتجاهات الأخرى بإمكانية التصوير الأدبي لما يختلج في

نفسه من شوق إلى الآخرة بما فيها من نعيم مقيم، وبما فيها من عذاب أليم - نسأل الله السلامة - (٢).

بل إن ما ورد عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يعطي الأديب الإسلامي مساحات شاسعة رائعة من الخيال الواعي لتصوير خلجات قلبه نحو ذلك النعيم العظيم.

وما كنت أظنُّ مسلماً سيقف متردداً أمام هذا المصطلح من حيث صلاحيته للوجود والبقاء، وقد عجبت كلَّ العجب لأحدهم عندما قال في مهرجان شعري عقد في الرياض : إذا قلنا الأدب الإسلامي، فكيف نعبر عن الوردية الجميلة والمنظر الطبيعي الخلاب؟؟ عجبت له وأسفقت عليه من هذا التصور الناقص والفهم الكسيح لمعنى اصطلاح الأدب الإسلامي.

ولا شك أن هذا القائل وأمثاله يبنون على هذا الفهم القاصر موافقهم الراضة لهذا المصطلح، ولو أعطى هذا القائل لنفسه فرصة التأمل والتفكير لعرف مدى النقص الكبير لديه في الاستيعاب. وإلا فإن نظرة عاجلة إلى كتاب الله الكريم، وسنة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، تؤكد أن التأمل الواعي، والشمولية في النظرة من أهم سمات المنهج الإسلامي.

وأعتذر إلى القارئ الكريم من الإطالة في هذه التوطئة وأنتقل إلى مناقشة الشبهات التي ذكرتها من قبل.

الشبهة الأولى :

يعترض البعض على مصطلح الأدب الإسلامي بقوله: إننا بهذه التسمية نلغي الأدب العربي، ويرى أن هذا جناية على الأدب العربي الذي أعطى على مدى قرون طويلة وما يزال، ونجيب عن هذا بما يلي :

١- لا يعني مصطلح الأدب الإسلامي إلغاء الأدب العربي، وهذا الربط بين الأمرين ناتج - في نظري - من تلك الرؤية الناقصة والفهم الكسيح لهذا المصطلح، وإن المراجعة السريعة لما كتبه نقاد الأدب الإسلامي تثبت خطأ هذا الزعم، فما من واحد من النقاد الإسلاميين قال بإلغاء الأدب العربي على الإطلاق، ويمكن أن تراجع الكتب التي نشرت في هذا المجال لكاتب مقتدرين أمثال د. عبد الرحمن رأفت الباشا في كتابه "نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد"، ود. عبد الباسط بدر في كتابيه "مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي" و "مذاهب الأدب العربي - رؤية إسلامية" ود. عماد الدين خليل في كتابيه "في النقد الإسلامي المعاصر" وغيرها من الكتب التي نشرتها رابطة الأدب الإسلامي.

٢- قلنا إن الأدب الإسلامي هو "التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب من خلال التصور الإسلامي". فالتصور الإسلامي هو القاعدة التي يقوم عليها هذا الأدب، ولهذا فإن بين الأدب الإسلامي والأدب العربي عموماً وخصوصاً.

فالأدب الإسلامي أعم من حيث شموليته لكل أدب انبثق من التصور الإسلامي سواء أكان أدباً مكتوباً بالعربية أم بغيرها من اللغات الأخرى التي يتكلم بها المسلمون في العالم، وهو أخص لأنه لا يطلق إلا على الأدب المنبثق من التصور الإسلامي، والأدب العربي أعم من حيث أنه يشمل كل ما كتب باللغة العربية على اختلاف المناهج والأفكار فهو يطلق على الأدب الاشتراكي والوجودي، واليساري، والقومي والإسلامي، ما دام مكتوباً بالعربية، كما أنه أخص لأنه لا يشمل الأدب المكتوب باللغات الأخرى فإذا كانت قصيدة بالأوردية مثلاً وكانت من خلال تصور إسلامي كقصائد محمد إقبال، فإني أسميها أدباً إسلامياً، ولا يصح أن أسميها أدباً عربياً وهكذا.

وبناءً على هذا التصور الإسلامي، فما كان من الأدب العربي منبثقاً من الرؤية الإسلامية أو متفقاً معها فهو أدب إسلامي، وما كان خارجاً عنها فهو أدب غير إسلامي، بل إن النصوص الأدبية التي لا تنبثق من التصور الإسلامي أساساً، ولكنها لا تتعارض معه تكون مقبولة في الأدب الإسلامي. إن محمد إقبال شاعر إسلامي، وهو باكستاني، وإن محمد محمود الزبيري شاعر إسلامي وهو عربي يمني، ولكن صلاح عبد الصبور ليس شاعراً إسلامياً وهو عربي مصري وهكذا.. ولا يستطيع عاقل منصف أن يقول إن أدب اليسار العربي أدب إسلامي. أو يقول إن أدب القومية العربية بمفهومها الضيق أدب إسلامي، بحجة أنه كتب بالعربية.

ومن هنا كانت شبهة "إلغاء الأدب العربي" باطلة من أساسها، وإنما يروج لها جاهل أو مغرض، بل إن صدور كلمة إلغاء في مقام الأدب دليل على عدم الوعي، فإنه لا يمكن لأحد أن يلغي اتجاهاً أدبياً مهما كان انحرافه، والأدب الإسلامي لا يملك قرار مصادرة الآداب الأخرى، وليس هنالك من يملك هذا الأمر من البشر، وإنما هو منهج واضح، يرسم أمام الأجيال المسلمة طريقاً أدبياً سليماً حتى لا يتخبطوا في طرق الآداب المنحرفة عن منهج الإسلام، وشتان بين هذا وبين دعوى "الإلغاء" وهناك فرق كبير بين من يرفض أمراً لأنه يتعارض مع ما يؤمن به، وبين من يلغي ذلك الأمر، إن الأدب الإسلامي يرفض الآداب التي تخالف تصوره الشامل، ولكنه لا يلغيها. إنه يرفض أدب محمود درويش مثلاً لأنه لا ينبثق من التصور الإسلامي، وإنما ينبثق من التصور اليساري، ولكن الأدب الإسلامي لا يلغي شعر محمود درويش، إن مدلول كلمة الإلغاء هو "الشطب الكامل والمصادرة" وهذا لا يتأتى لبشر، وأكبر دليل على ذلك ما بذله أصحاب الاتجاه اليساري "التقدمي" في عالمنا العربي من جهود كبيرة لمصادرة الأدب الإسلامي وإلغائه بحجة عن الناس وممارسة الإرهاب الثقافي ضده في الملاحق والصحف الأدبية، ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا - بإذن الله -، وأضرب مثلاً بالكاتب الروائي والمسرحي الإسلامي علي أحمد باكثير - رحمه الله - فقد حارب حرباً شعواء من قبل اليساريين وحالوا دون أعماله ودون النشر! لا في نطاق ضيق يكون خارجاً عن إرادتهم، ومع ذلك فما هو باكثير حي في عالمنا الإسلامي بأدبه، وما هي أعماله تطبع من جديد ويتلقفها القارئ بلهفة وشوق، ومثل هذا يقال عن محاولات أصحاب "الاتجاه العلماني" في الأدب الرامية إلى إلغاء الأصوات الإسلامية ومع ذلك فإنهم عاجزون، لأن فكرة الإلغاء غير واردة أصلاً في مجال الأدب والثقافة.

إن فالأدب الإسلامي مظلة كبيرة يستظل بها أصحاب التصور الإسلامي، وهي قادرة على إيواء كل أدب يتفق مع هذا التصور، ولكنها ترفض ما يصادم تصورها وفرق كبير بين الرفض والإلغاء (٣).

الهوامش:

- ١- انظر كتاب "الإنسان في الأدب الإسلامي للدكتور محمد عادل الهاشمي ص ٩ وما بعدها".
- ٢- انظر كتاب "منهج الفن الإسلامي للأستاذ محمد قطب، ص ٥٢ وما بعدها".
- ٣- راجع ما كتبه د. عبد الباسط بدر في كتابه القيم "مقدمة النظرية الأدب الإسلامي ص : ٨٤".

شعر

الحريق في البوسنة

شب حريقٌ في البوسنة ،
 والتهب الهرسك .
 واضطربت نيرانٌ ملعونة ..
 وانتشرت أحقاد .. مدفونة ..
 باركها "بطرس" :
 وتغامض عنها يضحك
 عم الدنيا "سام" .

شب حريقٌ في البوسنة
 يا عرباً .. يا أهلَ الدار ..
 يا مليار ..
 قطرة ماءٍ من واحدكم
 تكفي كي تذوى النار

كم أخفي خجلي كالمرأة
 حين تداهمني الأخبارُ السود ..
 لا عذرَ يبرئني من عار العجز
 لا يستر ضعفي "إنفاق" أو "جود"
 فالجرح عميق .. لا تسعفه أرغفة الخبز ..
 الكمدُ القاتلُ يحرقني
 أتساءلُ : أتجادلُ !!
 هاتوا يا صحبي أجوبة تعقل !!
 كيف يصيرُ الباطلُ حقاً ؟؟
 كيف تميلُ الكفةُ كل الميلِ ؟؟
 والأمةُ تُغمضُ أعينها .. ذلاً ..
 هل صرنا حقاً كغنائِ السيلِ ؟؟

عذراً .. يا "علي عزت" .. ليس معي "جيش" :
 صفحاً يا "بيجوفيتش" ..
 يا وطناً مسفوح الإنسان ..
 إني مثلك .. تقصفتني "الجرذان"
 أشهد أنني قد أوصلتُ الأنبياء ..
 وأنني قد رددتُ مآسيكم كل مساء ..
 وأن نداء الغوثِ الصادرِ من "سراييفو"
 داسته الأهواء
 صبراً .. يا نسل "الفتاح" ..
 لا تركنُ إلا لله الفرد ..
 ما من خوضِ المعركة الكبرى بُد

فالصربُ ذراعٌ للشيطانِ الوغدُ
 ما هم إلا بعضُ أصابعِ
 من أصلِ اليَدِ...
 إنْ همْ إلا واجهةٌ ،
 والحدُّ الأسودُ ممتدُّ..
 ينتشرُ سريعاً "كالسرطان" .. يمتدُّ
 يمتدُّ...

ما لم تصحُ الأمة فوراً...
 ما لم تُشرق فيها شمس...
 ما لم يَنبُت فيها مغزى للغد...
 ما لم تَبْلُغ سنَّ الرُّشدِ..
 لن يوقف هذا الخَطَرُ القادم.. أعلى سد .

المسلمون والعالم (ملف الصومال) ماذا يجري في الصومال ؟

مندوب البيان في الصومال

تقع الصومال على رأس القرن الأفريقي في منطقة استراتيجية تشرف على شرق القارة الأفريقية ، وتسيطر على مضيق باب المندب، وتطل على شبه الجزيرة العربية حيث مهبط الرسالة ومنابع النفط . ولهذا تسابقت الدول الاستعمارية على هذه المنطقة، وازداد تنافسها ، حتى عقد مؤتمر برلين في عام ١٨٨٤ م لاقتسام هذه الغنيمة ، فقسمت الصومال إلى خمسة اقسام :

- ١- بريطانيا أخذت قسمين .
- ٢- فرنسا أخذت قسماً .
- ٣- إيطاليا أخذت قسماً .
- ٤- الحبشة أخذت قسماً .

وبعد مغادرة المستعمرين أرض الصومال ضمت بريطانيا قسماً للحكومة الكينية ، وضم إقليم أوجادين الصومالي للحبشة، وجعلت فرنسا نصيبها السابق دولة مستقلة اسمها جيبوتي وأقامت عليها قواعد عسكرية. كل ذلك من أجل تمزيق الجسد الصومالي الذي يتميز بنسبة ١٠٠% من المسلمين .

ولكن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد ، ففي عام ١٩٦٩ م تولى الجنرال محمد سياد بري السلطة بانقلاب عسكري ، وفي سبتمبر ١٩٧٠ م تبنى الاشتراكية العلمية ، وفي عام ١٩٧٦ م أسس الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي وألغى جميع الأحزاب السياسية .

منذ أن تولى زياد بري السلطة وهو يعلن حربه على الإسلام وملاحفته الدعاة والعلماء.. فقد أصدر قانون الأحوال الشخصية وأعلن أمام الملا أن الإسلام قد ظلم المرأة وهو ينتصر لها ويسويها بالرجل في جميع المجالات في الإرث والنكاح والطلاق وغير ذلك !

في أول سنة ١٩٧٥م نشرت جريدة نجمة أكتوبر الحكومية زعمه : أن خمسين في المائة من القرآن الكريم منسوخ ، إلا أن العلماء لا يفهمون ذلك ! ولما اعترض بعض العلماء والدعاة وأنكروا عليه ذلك زج بهم في السجون وسامهم سوء العذاب ، وأخذ عشرة من أجلة الدعاة وأحرقهم بالنار أمام الملأ.. وكان من عاداته أن يتهم بالعلماء ويسميهم بالسفهاء ، وعندما واجهه أحد العلماء بالنصيحة قال له زياد بري بكل وقاحة : أكره الناس إليّ من قال لي اتق الله ، وخوفني بالله.. فهل الله سبع يأكل الناس !؟

وفي الثمانينات الميلادية غير زياد بري من أطروحاته وشعاراته السياسية وتوجه إلى المعسكر الغربي ، وتحولت القاعدة العسكرية السوفيتية في ميناء بربرة إلى قاعدة أمريكية . وقد فتح زياد بري أبواب الصومال للمنظمات التنصيرية التي بلغ عددها في آخر عصره ٨٦ منظمة .

وفي ١٩٨٩/٧/٩ قتل أحد الأساقفة الإيطاليين المشهورين ، ويرجح كثير من المتابعين أن المخبرات الصومالية هي التي قتلتها ، لأنه أعطى أسراراً كثيرة تتعلق بتجاوز السلطة لحقوق الإنسان في الصومال . ولكنه ألصق هذه التهمة بالإسلاميين واعتدى على كثير من الشباب والدعاة... فأعلن العلماء والدعاة استنكارهم لذلك فكانت النتيجة أن أرسل حرسه الخاص في ١٤٠٩/١٢ إلى جوامع العاصمة بعرباتهم المصفحة ، وأطلق النار بصورة عشوائية على المصلين ، فقتل أكثر من ألف شخص . وأعدم خمسين شخصاً من الدعاة والأئمة على أثر هذه المذبحة أيضاً .

ولما شعر زياد بري بانخفاض قدرته على السيطرة في البلاد مع مرور الأيام ، حاول أن يثير النعرات القبلية بين منافسيه ، ويدعم قبيلة على حساب القبائل الأخرى ، ثم ينقلب عليها ليدعم قبيلة منافسة أخرى، حتى أشعل الخلافات القبلية في جميع البلاد . وبسبب الدكتاتورية المتسلطة والفساد السياسي الكبير الذي تميز به عهد الرئيس زياد بري كثر التذمر الشعبي والرسمي، وفي مايو ١٩٩٠م أصدر ١١٤ رجلاً من زعماء القبائل بياناً اشتهر باسم بيان مانيفستو مقديشو دعوا فيه إلى عزل سياد بري وتشكيل حكومة ديمقراطية جديدة.

وفي ٢ أكتوبر ١٩٩٠م وقعت بعض حركات المعارضة اتفاقاً سياسياً ، وبدأت معارك عسكرية تمكنت بموجبها من طرد زياد بري من العاصمة في ١٩٩١/١/٢٨ م. وبخروج بري من السلطة ازداد اشتعال الفتيل الذي أطلق شرارته الأولى ، حتى انفجرت البلاد كلها ، واستعرت حرب أهلية قبلية بين جميع الأطراف ، وتحولت البلاد إلى ميدان للسلب والنهب القوي فيها يأكل الضعيف.. فكانت هذه نتيجة حتمية لنظام الديكتاتورية والتسلط وحرمان الشعوب من حقها الشرعي في الشورى وإبداء الرأي .

القبائل والأحزاب المتناحرة داخل الصومال :

بعد خروج زياد بري من السلطة تكونت أحزاب كثيرة يصعب حصرها ، لكنني سوف أبرز هذه الأحزاب:

١- المؤتمر الصومالي الموحد (U.S.C) بقيادة الجنرال محمد فارح عيديد ، وهو من قبيلة هويت فخذ هبرقدر . ويعتبر هذا الحزب من أقوى الأحزاب ، ويسيطر على جزء من العاصمة مقديشو وعلى ثلث البلاد تقريباً .

٢- الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال (S.S.D.F): زعيمها العقيد عبد الله يوسف والجنرال محمد أبشر من قبيلة مجيرتين ، وتسيطر على ميناء بيباصو وقررو وجالكعيو . وقد حصل بين هذه الجبهة والإسلاميين صراع عنيف في بيباصو ، وتشهد المنطقة الآن صراعاً عنيفاً بين هذه الجبهة وبين جيوش محمد فارح عيديد .

٣- الجبهة الوطنية الصومالية (S.N.M): ويتزعمها عبد الرحمن أحمد علي تور من قبيلة إسحاق وتسيطر على منطقة الشمال الغربي الصومالي ، وقد أعلنت هذه المنطقة استقلالها عن الجنوب وأسست دولة مستقلة عرفت بجمهورية أرض الصومال وعاصمتها مدينة هرجيا Somali Land Republic of .

بالإضافة إلى جبهات أخرى كثيرة وصغيرة لا أهمية لها وبعضها مجرد أسم ولافتة فقط . وقد حصلت عدة محاولات للتقريب بين هذه الأحزاب ، من أهمها مؤتمر جيبوتي الذي عقد خلال الفترة ١٥-١٩ يوليو من عام ١٩٩١م. وقد توصل المؤتمر إلى اختيار رئيس الجمهورية من أعضاء المؤتمر الصومالي الموحد لمدة عامين ، ووقع ترشيحهم على علي مهدي على أن يتم اختيار نائبه الأول من الحركة الديمقراطية الصومالية ، ونائبه الثاني من الحركة الشعبية الصومالية وجبهة الإنقاذ الصومالية الديمقراطية بالتبادل . ويكون رئيس الوزراء من الجبهة الوطنية الصومالية . ولكن هذه الاتفاقية انهارت كما انهارت الاتفاقيات الأخرى بسبب الصراع على السلطة في المؤتمر الصومالي الموحد بين الجنرال محمد فارح عيديد وعلي مهدي ، ثم ازدادت جذوة الحرب وكثر التنافس على السلطة على حساب الأبرياء الذين يتساقطون تحت نيران الجنود والخونة .

الاتجاه الإسلامي :

يوجد في الساحة الصومالية عدد من الاتجاهات الإسلامية المباركة التي تميزت بدعوتها العامة ، فانضم تحت ألويتها عناصر من قبائل متنوعة انصهرت في بوتقة واحدة ، ولم تفرق بين قبيلة وأخرى.. ومن أبرز الاتجاهات الإسلامية :

أ- الاتحاد الإسلامي الصومالي : ويعتبر من أنشط الاتجاهات الإسلامية وأكثرها اتساعاً ، وقد أقام المعسكرات التدريبية في عدد من المواقع . وخاض معارك عديدة مع الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الصومال في مدينة بيباصو ، ومع المؤتمر الصومالي الموحد في إقليم جدو ، وكانت هذه المعارك في مجملها موفقة مباركة والله الحمد . ويلقى هذا الاتجاه ترحيباً جيداً من الأوساط الشبابية خاصة لتمييزه السلفي والمنهجي .

ب- الحركة الإسلامية الصومالية : وهي حركة نشطة ركزت على الجانب الدعوي تركيزاً كبيراً ، ولم تر الدخول في الصراعات العسكرية القائمة في الساحة الصومالية .

انهيار الصومال :

لما بدأت الحروب الأهلية واستعرت نيرانها في أرض الصومال استغلت القوى الغربية هذه الفرصة لإنهاك الصومال المسلم وتمزيقه مرة أخرى ، فوقفت موقف المتفرج على الرغم من دعوتها إلى السلام في ظل ما يسمونه بالنظام العالمي الجديد . بل بدأت بتغذية الصراع القبلي وإثارته. وقد ذكر الكاتب الإيطالي بال ترميل في مدينة تورينو الإيطالية بأن الأوربيين هم السبب في استمرار المشكلة الصومالية وتغذيتها.. كما ذكر مراسل القناة الأخبارية C.N.N ، أن الحكومات الغربية توجه إمدادات الإغاثة الإنسانية للجيش المتصارعة قصداً لتغذية الصراع وتصعيده بين القبائل !! وقد وصلت الصومال من جراء ذلك إلى حالة انهيار كامل في بنيتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يوجد أي أثر من آثار الحياة الإنسانية داخل الصومال ، حيث نهبت خيرات البلاد وتسابقت الأحزاب المتناحرة على بيع الممتلكات العامة لشراء الأسلحة والذخيرة ، فالسلاح هو سيد الموقف داخل الصومال ، فلا أثر للكهرباء أو الماء أو غيرها هناك ، لأن كل شيء قد نهب وبيع . فقد كان الصومال على سبيل المثال يملك ثاني أكبر محطة لتصفية البترول في القرن الأفريقي وتقدر قيمتها بخمسمائة مليون دولار ، ولكنها بيعت بمليون دولار أمريكي فقط . بل وصل الحال ببعض الأحزاب أن نبشت الأرض واستخرجت أسلاك الكهرباء والتمديدات الأرضية لبيعها في السوق السوداء . حتى

بلغت الخيانة ببعض الأحزاب أن وقعت اتفاقيات مع عدد من الشركات الإيطالية والفرنسية والسويسرية والأمريكية لدفن آلاف الأطنان من المواد الكيميائية السامة والنفائات النووية في أرض الصومال.. لكي تستمر آثار هذه الحرب ليس على هذا الجيل فحسب ، بل على الأجيال القادمة..! وأصبحت هذه الدول تتسابق في إرسال هذه النفائات.. وتتباطأ في إرسال المعونات الإغاثية ، بل تختلق المعاذير والحجج لكي تمنع الإغاثة .

وقد كانت الأحزاب القبلية المتناحرة تمارس أبشع ألوان الوحشية من التدمير والنهب وانتهاك المحارم والأعراض ، بل والتمثيل بالجنث . وهذه الفوضى ساعدت على انتشار اللصوصية وقطع الطرق والاعتداء على العزل والأمينين .

وهكذا صممت الدول الغربية طوال هذه المدة لكي تنهار الصومال تماماً ، ومن ثم تتدخل الدول الغربية لتفرض الرجال والحكومة التي تريد ، وتصبح المنطقة مهياًة لإقامة القواعد العسكرية الأمريكية والأوروبية . فلا توجد قوة تستطيع أن تهدد المصالح الغربية.. !!

المهاجرون الصوماليون:

اضطر الشعب الصومالي الأعزل إلى الهرب خوفاً من نيران الحرب الأهلية التي أهلكت الأخضر واليابس . فكان كثير من الصوماليين يفر من مدينة إلى أخرى ، حتى إذا لحق بهم الحرب مرة أخرى اضطروا للفرار إلى مدينة ثالثة.. فأصبح الشعب الصومالي كله مهاجراً سواء كان في الداخل أو في الخارج . فالقادرون منهم وخاصة أصحاب التخصصات العلمية هاجروا إلى أوروبا وأمريكا وكندا ، ويقدر عددهم بحوالي مائتي ألف صومالي . وأما عامتهم فقد استقر بهم المقام في الدول المجاورة مثل كينيا وأثيوبيا وجيبوتي واليمن.. بعد أن أنهكتهم الهجرة وهدم المسير .

رأيت أحدهم على الحدود الصومالية الكينية وليس معه إلا ولده البالغ من العمر خمس عشرة سنة ، وقد شحب وجهه وغارت عيناه وتشققت قدماه.. فسألته عن حاله ؟ فجلس على الأرض ووضع يده على رأسه وأغمض عينيه.. ثم أحضرنا له قليلاً من الماء ، فلما شرب وارتوى ، قال لي : اسبوعان ، كنا نمشي على الأقدام ، هلكت أمي وزوجتي وثلاثة من أطفالي ، ولم يكن لي القدرة على دفنهم.. وكما ترى لم يبق معي إلا هذا الولد!!؟

قد بلغ عدد المهاجرين إلى كينيا حوالي خمسمائة ألف لاجئ توزعوا في عدة مخيمات . كانوا يظنون أنهم فروا من الموت ، لكنهم في حقيقة الحال فروا من الموت السريع تحت نيران الجنود إلى الموت البطيء حيث الجوع والمرض . وقبل أن نبدأ بذكر أحوالهم ، هذه نظرة سريعة لأحوال المنطقة التي هاجروا إليها :

- يمر الشمال الشرقي الكيني المجاور للحدود الصومالية - وهي المنطقة التي هاجر إليها الصوماليون - بجفاف شديد منذ ثلاث سنوات تقريباً لانقطاع الأمطار .

- يوجد في المنطقة مائة سد لمياه الامطار جفت تماماً .

- ٨٠% من الأغنام والأبقار و ٤٠% من الإبل قد هلكت في منطقة وجير الكينية بسبب الجفاف .

- منطقة وجير مساحتها ٥٦٥٠٠ كم^٢ يعيش عليها ١٢٦ ألف نسمة من الأهالي ، يضاف إليهم ٢٠ ألف نسمة من المهاجرين الصوماليين لا يوجد فيها إلا ١٨ بئراً ارتوازيماً عاملاً ، أما بقية الآبار وعددها ثلاثون بئراً فقد تعطلت .

- ٢٠% من الأطفال دون سن الخامسة ماتوا خلال شهري شوال وذو القعدة الماضيين بسبب أمراض سوء التغذية .
- فإذا كانت هذه هي حالة أهل البلد الأصليين فكيف يكون حال المهاجرين الصوماليين إلى هذه المنطقة..؟ وإليكم الإحصاءات التي تدل على عمق المأساة وآثارها الواسعة بين المهاجرين :
- عدد الوفيات حوالي ٢٠٠ حالة يومياً.. وقد بلغت في بعض الشهور الماضية إلى خمسمائة حالة أو أكثر.
- ٣٠٠,٠٠٠ طفل ماتوا جوعاً ومرضاً داخل وخارج الصومال منذ بداية الأزمة .
- ٥٥% من الأطفال مصابون بأمراض سوء التغذية .
- ٣٠% من الأطفال دون سن الخامسة يحتاجون إلى تغذية طبية بالسوائل .
- ٣٠% من الصوماليين مصابون بأمراض الجهاز التنفسي والسل .
- ٨٠% من النساء الحوامل يمتن أثناء الولادة لعدم وجود الرعاية الصحية الأولية .
- ٩٠% من المهاجرين لا يملكون خياماً للسكن فيها وإنما يسكنون في بيوت من القش .
- وبعد هذه الإحصاءات يتبين حجم المأساة ، فالأحوال بلغت حداً لا يوصف من التردّي والمجاعة ، حتى إنني رأيت امرأة في مخيم صوفتو في أثيوبيا تأخذ جلدًا مجففاً و تدقه .. فلما سألتها عنه ؟ قالت : إنها تطبخه بالماء وتطعمه لأولادها الأيتام !!..
- وفي مخيم آخر رأيت رجلاً قد جفف دم إحدى الحيوانات بعد ذبحها حتى تجلط وتصلب .. فلما سألته عنه ؟ قال : إنه طعامه هو وأولاده !
- ورأيت رجلاً مع زوجته في مخيم مانديرا الكيني في حالة يرثى لها ، فدخلت في خيمته فلم أجد فيها أثراً لطعام ، فسألته : ماذا أكل في هذا اليوم ؟ فقال : لا تسلني عن اليوم ، ولا عن الأمس ، ولا عن الذي قبله ، فلي ثلاثة أيام لم أذق طعاماً قط .. !!
- وجلست في أحد الأيام في مقبرة صغيرة في مخيم مانديرا - وهي مقبرة من بين عدد من المقابر المنتشرة في المخيم - ما بين الساعة الثامنة صباحاً إلى العاشرة صباحاً ، دفن خلالها ١٥٠ نفساً.. فكيف يُتصور العدد في بقية اليوم .. وكيف في بقية المقابر؟!..

حماية إغاثة أم حماية مصلحة

محمد الشيخ عثمان

إن مما لا شك فيه أن ما يحصل في الصومال هو نتيجة الابتعاد عن نهج الله القويم وشرعه الحنيف لمدة طويلة قبل الاستقلال وبعده . ومع أن هذا الشعب يدين بالإسلام ١٠٠% إلا ما ندر ، ومع أنهم كلهم سنة ويتمذهبون بالمذهب الشافعي ؛ إلا أن النعرات القبلية وصلت بهم إلى التقاتل الجماعي ونهب الأموال وانتهاك الأعراض، وبهذا فقد الأمن والاستقرار وأصبحت النتيجة الموت الجماعي من أثر المجاعة ، والهجرة الجماعية إلى حدود كينيا وأثيوبيا والدول الغربية كبريطانيا وإيطاليا .

ومع أن أي مسلم يألم أشد الألم لما يحصل لهذا الشعب المنكوب ؛ إلا أن التدخل الأمريكي ليس حلاً للقضية، وليس حماية للإغاثة كما ادعوا، وإنما حماية مصلحة الدول النصرانية عامة ونصارى شرق أفريقيا خاصة . لذا فموقف المسلم من هذا التدخل لا بد أن يكون مبنياً على الآتي :

- ١- إن النظام الأمريكي لا يريد خيراً للمسلمين، بل يبطن الشر والحقْد على عموم المسلمين، والأمثلة أكثر من أن تحصى ، ومعاناة شعب البوسنة المسلم والشعب الفلسطيني مثال بسيط على ذلك .
- ٢- لقد عودتنا أمريكا أن يكون لها برنامج معلن وآخر غير معلن ، فادعائهم أنهم يدخلون الصومال لحماية الإغاثة لا يختلف عن ادعائهم السابق في الخليج العربي أنهم يدخلون لحماية حدود معينة في بلد ما ، ثم ما لبثوا أن غيروا من أهدافهم .
- ٣- كانت أمريكا ضد أي تدخل عسكري في الصومال لمدة سنتين، ويبدو أنهم كانوا يهدفون إلى إطالة أمد التحرير بين الفئات حتى تتدهور الأوضاع وتأتي الفرصة المناسبة للتدخل ، وذلك بعد تمهيد الإعلام الغربي واستقطاب الرأي العام .
- ٤- إن قوة ٣٠ ألف من المارينز إضافة إلى قوات أخرى ، من كندا ٩٠٠ ، استراليا ٩٠٠ ، فرنسا أكثر من ٢٠٠٠ ، إيطاليا ١٠٠٠ ، إلى غير ذلك.. كل هذا يشير إلى أن العملية أكبر من عملية حماية إغاثة ، وإذا عرفنا أن منطقة المجاعة ليست منطقة كبيرة (Baidor . Bardhera) وأنها ليست كل الصومال ؛ يتبين أن الهدف الحقيقي ليس حماية الإغاثة وإنقاذ متضرري الصومال ، وإلا: لماذا لا يرسلون نصف هذه القوات إلى البوسنة ؟ مع أن وضع البوسنة أسوأ بكثير من الصومال .
- ٥- إن الإعلام الغربي كان يتكلم في الفترة الأخيرة عن تزايد الأصولية في الصومال (١) . وهذه الكتابات والتقارير يبدو أنها أقنعت جورج بوش بالتدخل لمحاربة المد الإسلامي القوي في الصومال .

وقد ذكرت مجلة الوسط في عددها رقم ٤٦ تاريخ ١٤/١٢/١٩٩٢ أن مصادر مسؤولة في إدارة جورج بوش أكدت لهم أن من الجوانب غير المعلنة محاربة المجموعات الأصولية المسلحة ، وعلى رأسهم الاتحاد الإسلامي الذي هو أكبر تجمع إسلامي في البلاد . فماذا تريد أمريكا من الاتحاد الإسلامي مع أنه لم يشترك يوماً ما في أنواع الفساد التي ترتكبها العصابات المسلحة الأخرى مثل النهب والقتل والاعتصاب وغير ذلك ؟ والجواب واضح وهو أن الاتحاد الإسلامي نجح في توعية أعداد كبيرة من الشعب ، وطرح الحل الإسلامي بعد أن فشلت جميع الشعارات الأخرى في المنطقة . فالإسلام هو الحل الوحيد الذي يجمع شتات هذا البلد ويجمع شمل شعبه المنكوب ، إضافة إلى أن قيام دولة إسلامية دستورها الكتاب والسنة سيكون له أثر طيب على أحوال المسلمين في الدول المجاورة : كالحبشة وكينيا وإرتريا .

٦- إن من الأسباب الغير المعلنة للتدخل الأمريكي السيطرة على البوابة الجنوبية للبحر الأحمر أي مضيق باب المندب الصومالي . كما أن قربه من المنطقة الإسلامية تساعده على تنفيذ مخططاته تجاه الأمة ، وبعبارة أخرى : فأمريكا ترسل رسالة عن طريق تدخلها في الصومال أنها من الممكن أن تفعل نفس الفعل في بعض أجزاء من العالم الإسلامي .

٧- إن توجه السودان إلى الإسلام أثار قلق أمريكا والغرب، ووجودهم قرب السودان سيتيح لهم فرصة التدخل في شؤون هذا الشعب المسلم. وأخيراً فإنني أرجو من المسلمين عدم تصديق ما ينقل عبر وسائل الإعلام الغربية عن الصومال ، مثل ادعائهم أن عامة الشعب يرحب بالوجود الأمريكي ! وهذا غير صحيح . ومع إن الشعب يريد مخرجاً للأزمة ، إلا أنه كان يتوقع أن تأتي المبادرة من الدول الإسلامية ، مثل ما فعلت دول غرب أفريقيا في ليبيريا . بالإضافة إلى الأمور المذكورة هناك أضرار اجتماعية متوقعة من الوجود الأمريكي . فالجيش الأمريكي معروف بالانحلال ، وقد نقلت الجرائد الغربية أن الجيش الأمريكي ترك وراءه ٢٣ ألفاً من اللقطاء في الفلبين ، أضف إلى هذا أن أعداداً كبيرة منهم مصابون بالإيدز والشذوذ .

وإني وإن كنت أوم شعبي أولاً لإتاحة الفرصة لمجيء هؤلاء إلى بلدي ؛ إلا أنني اعتقد أن القيم الإسلامية ما زالت جذورها موجودة عند الأفراد العاديين ، وأكبر مثال على ذلك قصة البنت الصومالية التي نقلتها التلفزة البريطانية يوم ١٤/١٢/١٩٩٢ وهي تضرب من جميع أفراد الشعب بالنعال لأنها ذهبت مع الجنود الفرنسيين . وذكرت بعض الجرائد أنها ماتت إثر الضرب . ولعل مثل هذا الحادث يكون حافزاً للشعب الصومالي بأجمعه لاستنهاض غيرته وبعثها، كي يلم الصوماليون شملهم ويعودوا إلى رشدهم ويضمدوا جراحهم ، ويظلوا أوفياء لعقيديتهم ودينهم وتاريخهم .

((وَأَتَّفُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً))

الهوامش:

١- الواشنطن بوست ١٢/١١/١٩٩٢م، وكالة رويتر ١٧/١١/١٩٩٢م، وغيرهما من المجلات والجرائد الغربية .

أمريكا والمستنقع الصومالي

د. مالك الأحمد

وصلت طلائع القوات الأمريكية إلى الصومال رغبة في "إعادة الأمل"!! إلى الشعب المسحوق من الحرب الأهلية من جهة والمجاعة من جهة أخرى، وتعالى الأصوات هنا وهناك بين مؤيد لهذه الخطوة الجديدة وبين معارض لها ، ففي الصومال رحب طرفاً النزاع الرئيسيان بهذه القوات ، بينما اعترض عليها الاتحاد الإسلامي الصومالي ، وتعالى الأصوات بأن "الأصوليين دوماً أهل اعتراض وأصحاب نظرة شك وتوجس" .

وكتب الكثيرون حول هذه القضية ومنهم من حلل الأمر بأنه استعمار جديد (وهو كذلك) ومنهم من أوله بأن الأمر لا يعدو أن يكون يقظة ضمير أميركي، وبما أن الدعاة "الأصوليين" محل اتهام ونظراتهم محل توجس وفراساتهم محل اعتراض أحببت أن أعرض هنا مقتطفات لكتاب مختلفي المناحي والمشارب أحدهما غربي ، والآخر عربي علماني يؤكدان فيها التوجه الاستعماري للعملية وأنها لا تعدو أن تكون وجهاً جديداً لمخطط قديم.

يقول مايكل كلاف من مجلس العلاقات الخارجية في واشنطن :

"بعد مرور أقل من عامين على حصول آخر المستعمرات في أفريقيا - وهي ناميبيا - على استقلالها، من المرجح أن تكون الأمم المتحدة قد اتخذت أول خطوة يمكن أن تؤدي إلى إعادة استعمار الأمر الواقع إلى الدول الأفريقية التي على وشك الانهيار ، كما أن الولايات المتحدة التي بدا أنها على وشك التخلي عن أفريقيا ربما تجد نفسها منهمكة في شؤون القارة أكثر من أي وقت سابق" . ثم يضيف : "هناك إمكانية قوية وحقيقية في أن تقيم الأمم المتحدة وصاية على الصومال لفترة طويلة (صرح بطرس غالي بإمكانية هذا الأمر وأنه محل دراسة) . وهنا يكمن خطر الاستعمار من جديد ، ولكن بوجه إنساني ، لأنه سيعني في الواقع تولى الأمم المتحدة والولايات المتحدة المسؤولية الكاملة عن البلاد ، وعندها لا بد من تشكيل قوة شرطة وقوات أمن جديدة، وإعادة بناء البنية الأساسية والوظائف، وتجنيد جيش من البيروقراطيين الدوليين وما إلى ذلك مما سيكون نظاماً استعمارياً رغم دوافعه الإنسانية" ثم يبين إمكانية توطين هذا المبدأ الاستعماري في أماكن أخرى من العالم الإسلامي : "وما هي إلا قضية زمن قبل أن تبدأ أجهزة الإعلام في تسليط

الاهتمام على المناطق الأخرى من القارة المماثلة للصومال (مثل السودان) مع أن الصومال حالة استثنائية الآن . وسوف تكون وجهة نظر التدخل من أجل المساعدات الإنسانية وبالتالي عودة الاستعمار الجديد بهذا الشكل قوية جداً لا سيما وأن هناك في الغرب شبكة شاسعة من المنظمات الكنسية والخيرية التي يمكن أن تصبح مماثلة لتلك الجمعيات التبشيرية ولمحاربة الرقيق التي شهدناها في القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل أن ينشأ تحالف شاذ غريب بين تلك المنظمات والمؤسسة العسكرية الأمريكية التي تبحث عن مهمات دولية جديدة لتبريرها" انتهى ما نقلته الشرق الأوسط عن لوس انجلس تايمز . وهذا رأي كاتب غربي بارز صاحب العديد من الدراسات والكتب في الشؤون الأفريقية .

وننقل هنا أيضاً وجهة نظر عربية قومية (ليست أصولية) حول التدخل الأمريكي في الصومال بقلم صلاح الدين حافظ حيث يقول :

"إن دور الأمم المتحدة كمنظمة عالمية قد تبدل هذه الايام ، فبعدها كانت - طبقاً لميثاقها الصادر في أعقاب الحرب العالمية الثانية وفي ظل نتائجها - مظلة لكل الأعضاء المتساوين في الحقوق والواجبات كاملي الاستقلال لا تملك سوى حركة التنسيق بين إيرادات الدول وسياسات الكتل ؛ أصبحت اليوم في ثوب مغاير ، ثوب يمنح قيادتها لدولة عظمى وحيدة هي الولايات المتحدة التي تبوأَت وحدها هذا المنصب بعد أن أجهزت على الاتحاد السوفييتي ، وبعدها نفذت يدها من الحرب الباردة وتوازاناتها ومنافساتها المعقدة ، ومن ثم فإن الأمم المتحدة (المنظمة العالمية) أقرب ما تكون اليوم إلى "مجلس شورى عالمي" للولايات المتحدة التي تأخذ من هذه الشورى ما تريد وتفرض هي ما تحب ، أليست هي القطب الأعظم الأوحده؟" ، ويتابع الكاتب : "وبصرف النظر عن أن إنقاذ دولة الصومال من زعمائها وميليشياتها المتقاتلة ، وإنقاذ الشعب الصومالي المطحون من المجاعة الرهيبة أمر مطلوب إنسانياً ؟ إلا أنه يلفت النظر التناقض بين السرعة والحماس الذين تم بهما اتخاذ قرار التدخل العسكري هذا وبين التباطؤ - بل التواطؤ - والتقاعد في حالة البوسنة والهرسك وصولاً إلى حد التغاضي عن التطهير العرقي والمجازر الجماعية تحت سمع الجميع وبصره وبحجة واهية تدعي أن الوضع الجغرافي مختلف في الحالتين الأمر الذي يترجم عادة بأن التدخل العسكري سهل في الصومال الإسلامية الأفريقية صعب في البوسنة الإسلامية الأوروبية، ولعل في هذه المغالطة ما فيها من تمييز يخفي المخبوء" انتهى.

وهنا لا بد من توجيه إخواننا الدعاة في الصومال والسودان وأرتيريا وغيرها للحذر واليقظة من المخططات الاستعمارية الجديدة ، والتي باتت مكشوفة لدى الجميع وإن تسربت بلباس المساعدات الإنسانية ، ولا بد أن يكون الجميع عند مستوى الأحداث وعياً وإدراكاً وحسن تصرف بعيداً عن الهيجانات العاطفية والتصريحات الانفعالية ، بل لا بد من أخذ الأمور بترك وحكمة كي لا نعطي لهم المسوغات - وهم لا يحتاجون إليها - لضرب التوجه الإسلامي في منطقة القرن الأفريقي ، خصوصاً بعد ظهور كثير من الأصوات في منظمات الإغاثة الصليبية ، وعلى رأسها الصليب الأحمر الدولي ، التي تحذر من خطر الأصولية في المنطقة بل وتحذر من خطر عمليات الإغاثة التي يقوم بها هؤلاء الأصوليون ، وقد سبق لهم كتابة تقارير تحذيرية لكثير من الجهات الغربية بل والإسلامية كي يخلو لهم الميدان لافتراس هذه الشعوب المسلمة الجائعة والتائهة .

ومشروعه التخريبي في تونس

أ- محمد الشرفي رمز التخريب :

إن من إفرازات سياسة الطاغية بورقيبة التعليمية ظهور نخبة من المثقفين العلمانيين المتغربين التي قبضت مقاليد التعليم الجامعي منذ انطلاقة في بداية الستينات ، ومن هؤلاء محمد الشرفي الذي كان متخصصاً في الدراسات الحقوقية ، ولكن السمة في أبحاثه معاداته المطلقة للثقافة والتشريع الإسلامي ، حيث إنه كان ينادي منذ الستينات "بإصلاحات تشريعية" تتعارض صراحة مع الأحكام الشرعية الصريحة والمُحكّمة ، مثل مناداته بالمساواة في الإرث بين الرجل والمرأة ، بالإضافة إلى مناصرته إلى كل ما ينادي به بورقيبة في إطار مشروعه التخريبي مثل "تحرير المرأة" والقضاء على الهوية العربية الإسلامية للبلاد التونسية، وبذلك نلاحظ أنه لا اختلاف في الرأي والتصورات الفكرية بين الشرفي وبورقيبة رغم المعارضة الظاهرية والشكلية التي أبداهما الشرفي في عهد بورقيبة ، بل إن من مظاهر التطابق والتجانس الفكري بينهما تمسك كلاهما باللغة الفرنسية كلغة دراسة وإدارة في البلاد وهو الوجه الثاني العملي للمشروع التخريبي . ذلك بعد أن أطيح ببورقيبة في ١٩٨٧م تعالت الأصوات المنادية بالتعريب في التعليم والإدارة ومختلف مناشط الحياة في البلاد، فكان من أول المعارضين لسياسة التعريب محمد الشرفي من موقعه في ذلك الوقت كأستاذ محاضر في كلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس ، حيث شكل مع فئة من الفرنكفونيين تياراً معارضاً لسياسة التعريب، ومن هؤلاء عبد الفتاح عمر رئيس جامعة تونس حالياً، وقد حقق مشروع التعريب خطوات إيجابية في الأشهر الأولى بعد الإطاحة بالطاغية بورقيبة قبل أن تحصل الردة وتسقط البلاد بأيدي التيار العلماني نهائياً(*)، فوقع تعريب برنامج المرحلة الأولى لكلية الحقوق فكانت من المواقف المسجلة على الشرفي أنه امتنع عن إلقاء المحاضرات باللغة العربية لشده تمسكه باللغة الفرنسية، وكرهه للغة العربية فتنادت شرادم الفرنكفونيين وأسست كلية الحقوق بأربانة" بضواحي العاصمة - والتي تقرر أن تكون لغة الدراسة فيها هي الفرنسية .

وهكذا يظهر جلياً أن الشرفي هو رمز للتغريب والفرنكفونية والعلمانية بكل أبعادها الخطيرة على البلاد والعباد، من اجتثاث البلاد من هويتها الإسلامية والعربية والزج بها في مآهات الضياع والتبعية الثقافية للغرب عموماً وفرنسا خصوصاً .

ورغم المعارضة الشديدة التي أبداهها بعض المثقفين والجامعيين لتولي الشرفي وزارة التربية وصدر كتاب "لا أريدك وزيراً" الذي فضح حقيقة الشرفي التغريبية واحترازات العديد من الأطراف فإن الشرفي تسلل إلى وزارة التربية شأنه شأن شرادم اليسار التي تسللت كذلك إلى مواقع السلطة دون أي موافقة شعبية، بل في تحد واضح لإرادة الشعب الراض لهذه الطغمة العلمانية العميلة ، التي أخذت على عاتقها القيام بدور قدر قد لا يقل قذارة عن دور المبشرين المسيحيين الممهدين لدخول الاستعمار للعديد من البلدان .

وتولى الشرفي الوزارة فكان البيان الضجة الذي وقعته الشيخ عبد الفتاح مورو في أكتوبر ١٩٨٩م والذي دعا فيه إلى عدم الاستخفاف بقيم الإسلام وضرورة إقالة الشرفي ، ثم كانت حملة حتى بعض اليساريين والقوميين الذين يعون حقيقة الشرفي ونادوا بضرورة الجلاء الثقافي كما حصل الجلاء الزراعي من قبل . ولكن الدعم الكبير الذي كان يلقيه الشرفي خاصة من فرنسا التي تدخلت مباشرة بتعيينه حال دون حصول أي تغيير في الوضع ، بل إن الشرفي ركز قدميه في الوزارة وبدأ في تنفيذ مشروعه التخريبي الذي أطلق عليه مشروع "إصلاح التعليم" .

٢- الأبعاد الحقيقية لمشروع "إصلاح التعليم":

إن من المعلوم أن برامج التعليم ومناهجه التي سارت عليها الأجيال التونسية طيلة عهد حكم الطاغية بورقيبة قد وضعها الفرنسي "ديباس" الذي كلفه بورقيبة بوضع برامج التعليم منذ الستينات فأشار "ديباس" بإغلاق الجامعة الزيتونية بحجة توحيد المناهج التعليمية وبتعزيز اللغة الفرنسية كلغة أساسية للتعليم سواء كان في مجال العلوم الصحية أو العلوم الإنسانية، أما اللغة العربية فإنها تدرس كلغة ثانية كغيرها من اللغات الأجنبية، وظل الأمر كذلك حتى سقط بورقيبة وتولى الشرفي وزارة التربية .

ورغم هذا المنحى التغريبي الخالص في مناهج التعليم، لاحظت الأطراف الفرنكفونية العلمانية أنه لم يحقق الأهداف المرجوة من اجتثاث هوية الأمة وتغريبها بالكامل بل إن النتائج كانت عكسية إذ ظهرت التيارات التأسيسية الإسلامية المناهضة لسياسة التغريب ، ولعل الدور الذي قامت به الحركة الإسلامية في مواجهة بورقيبة جعلت التيار التغريبي يأخذ على عاتقه مواصلة سياسة التغريب بل تجديد وسائل هذه السياسة وإعطائها دفعاً جديداً لعلها تحد من المد الإسلامي المنتامي ، وفي هذا الإطار ينتزل مشروع الشرفي لإصلاح التعليم فكان إطلاق شعارات :

* التفتح على الثقافات الأجنبية .

* وامتلاك لغة العلم والتكنولوجيا .

* وترسيخ التفكير النقدي .

* ونشر قيم التسامح والتآخي ونبذ التطرف والتعصب .

وغيرها من الشعارات البراقة التي هي في الحقيقة كلمات حق أريد بها باطل .

قال الله تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ))

[إبراهيم ٢٨] .

وإذا كان المجال لا يتسع للرد على هذه التوجهات فإنه لا بأس من التعرّيج بسرعة على الخلفية الحقيقية لهذه الشعارات وما أريد بها من قبل أصحابها ، أما التفتح على الثقافات الأجنبية فالمقصود به أساساً الانفتاح اللا مشروط على ثقافة الرجل الأبيض ، والقبول بها دون احترازات أو تحفظ على أي جانب منهما رغم ما تزخر به من نقائص ظهرت نتائجها الملموسة على الساحة الاجتماعية ، وما أفرزته من انتشار للجريمة والإدمان على المخدرات والأمراض الجنسية والنفسية ، وتفكك أسري وغير ذلك من الأخطار الاجتماعية التي تشكل تهديداً جديداً على المجتمعات الغربية أكثر من تهديد الحروب الأهلية أو الكونية . ورغم ذلك فإن دعوة الشرفي صريحة في التبشير بهذه الثقافة الداخلية ، والتي بغض الطرف عن كل نقائصها فإنها تبقى ذات خصوصية معينة لا تتفق إلا مع البيئة التي نشأت فيها .

أما امتلاك لغة العلم والتكنولوجيا فإن هذه الدعوة أريد لها بالأساس التمهيد إلى إعادة تبوء اللغة الفرنسية المكانة التي كانت عليها في مطلع الستينات من ناحية ، ومن ناحية ثانية السعي إلى إعادة نشر وترسيخ القيم الغربية ذلك أن اللغة في علاقة عضوية بالتفكير ولعل ما أشارت إليه جريدة الفجر عن الملاحظات حول بعض ما ورد في الكتب الدراسية باللغة الفرنسية في بعض الفصول الدراسية خير دليل ومن ذلك صدور خارطة فلسطين المحتلة في بعض الكتب تحت اسم "إسرائيل" دون أي إشارة إلى فلسطين أو ما ورد من نصوص للقراءة بالفرنسية وما فيها من وصف مشين للمسلمين وتسميتهم بمحمد بالنسبة للرجال وكل النساء بفاطمة وذلك من باب الاحتقار والاستخفاف بالمسلمين وغيرها من الأمثلة التي لا تحصى .

قال الله تعالى : ((أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)) [التوبة ٦٣] .

أما بالنسبة لترسيخ التفكير النقدي وروح التسامح ونبذ التطرف والتعصب فإن المغزى من هذه الدعوة لا يخفى على أحد ، فهي تهدف استباحة المقدسات والثوابت ، وتشجيع مرضى القلوب على التعرض لها بالنقد والتجريح بدون علم وعن جهل بل عن قصد ونية سيئة مبيتة ، والتعرض لكل من يحاول الدفاع عن أصول الدين وشرائعه ووصفه بالتطرف والتعصب وعدم القبول بالرأي المخالف ، وهذا أمر خطير وخطب جليل لما يؤدي إليه من طعن وتشكيك في قيم الأمة ومقدساتها التي يراد بها أن تصبح محل خلاف وجدال لا محل اتفاق وإجماع ، وبذلك تدك حصون الأمة ويسهل غزوها ثقافياً وعقائدياً وقيماً .

قال الله تعالى : ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)) [الأنفال ٣٠] .

هذه عجالة عن الخلفية الحقيقية لمشروع الشرفي "لإصلاح التعليم" الذي لم يتجه إلى المشاكل والعوائق الحقيقية في المناهج التعليمية السابقة ، التي أدت بالبلاد إلى أزمة تعليمية خطيرة مثل كثرة المنقطعين عن التعليم في مختلف المراحل التعليمية ، وأزمة البحث العلمي الذي هو أقرب إلى العدم منه إلى الوجود ، وأزمة التوجيه الجامعي والخريجين وغيرها من المشاكل الهيكلية التي تنخر النظام التعليمي ككل .

٣- تغيير برامج التربية الإسلامية - مثال :-

لقد كان يطلق على الشرفي من قبل بعض المثقفين - قبل وبعد تعيينه في الوزارة - أنه وزير صاحب مشروع ، بمعنى أنه صاحب أهداف خاصة به يريد تحقيقها من خلال وصوله إلى الوزارة ، فهو ليس وزير تنفيذ فقط . وعلى هذا الأساس لا غرابة أن نجد أول ما قام به الشرفي في "إصلاح التعليم" هو تغيير برامج التربية الإسلامية ، وذلك لسبب وحيد وهو أن هذه البرامج - رغم كل الاحترازات حولها - فيها مسحة إسلامية يقف وراءها جملة من الأساتذة المخلصين الذين وضعوها منذ عهد بورقيبة فكانت حملة مركزة على هذه البرامج، وصفت فيها بثتى النعوت التي تنم عن موقف التيار التغريبي من الإسلام ككل، وليس من هذه البرامج فقط، فهذه البرامج في تصورهم سبب في تخريج جيل متطرف عنيف بسبب دراسته لمفهوم الجهاد في الإسلام ، فكان التغيير هو أول خطوة قام بها الشرفي دون استشارة الأساتذة المدرسين للمادة ، ولا لجنة متابعة البرامج في الوزارة التي أقيمت رئيسها الشيخ محمد بن إبراهيم الأستاذ في الجامعة الزيتونية وإمام جامع الفتح بالعاصمة دون سابق إعلام ، ووقع الاعتماد في إعداد البرامج الجديدة على من يسمون بجماعة اليسار الإسلامي من حيث وقع اختيار رئيسها حميدة النيفر مستشاراً خاصاً للشرفي للشئون الدينية .

قال الله تعالى : ((الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) [التوبة ٦٧] .

فكانت البرامج الجديدة مختلفة تماماً بل مناقضة للأولى على مستوى الأهداف والمنهج، فأهداف هذه البرامج حسب ما ورد عنهم تتمثل في ترسيخ روح التأخي والتسامح لدى التلميذ وذلك من خلال الوقوف على مقاصد الإسلام الداعية للمحبة والتيسير في الدين ، أما المنهج في التدريس فهو يعتمد على اجتناب التلقين حتى لا يقع التعسف على عقل الطفل بل لا بد من الاعتماد على الطريقة الحوارية الاستنتاجية .

فالملاحظ بصورة جلية من أهداف هذه البرامج أنها تعميمية لا يمكن للتلميذ أن يعرف من خلالها حتى الضروري من عقائد الإسلام وشرائعه فكيف يمكن الحديث عن مقاصد الإسلام دون معرفة أحكامه التفصيلية المؤدية للمقاصد الإسلامية، ولكن دعوة هؤلاء الضالين - ممن يسمون أنفسهم بالتيار الإسلامي الذين ينادون بالفهم المقاصدي للإسلام - هي ضرب للإسلام نفسه. أما منهج التدريس فهو في ظاهره إيجابي ولكن المقصود به هو تهميش المادة ونفي التحصيل العلمي للتلميذ من دراستها فكيف يمكن أن نعتد الطريقة الحوارية في تدريس الأحكام الشرعية ونجتنب تلقينها للطفل بحجة عدم التعسف على عقله؟ فمن ينادي بهذا الرأي لا يمكن أن يكون تصور تعليم الأطفال الإسلام وأحكامه تعسفاً لا بد من تخليصهم منه .

وعموماً جاءت البرامج الجديدة فارغة من كل محتوى ، ضحلة في قيمتها العلمية فمثلاً على ذلك في برامج الصف الثاني تقرر تدريس الصلاة فنجد أن نصف الدروس المخصصة لهذا المبحث تتحدث عن جامع الزيتونة وتاريخ جامع الأزهر وغيرها من المساجد ، وليس المقصود من ذلك إبراز دور هذه المساجد التاريخي في نشر الإسلام ودورها في نشر الإسلام ودورها العلمي المستمر عبر القرون ؛ بل القصد من إدراجها هو تهميش مبحث الصلاة حتى لا تتوفر فرصة حقيقية للتلميذ ويتعلمها على أسس صحيحة ، وهذا ما لاحظته جل زملاء الأساتذة المدرسين لهذه المادة .

قال الله تعالى : ((وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَتْرُوكَ مِنْهُ الْجِبَالَ)) [إبراهيم ٤٦] .

وبذلك يظهر أن تغيير برامج التربية الإسلامية أبرز مثال على الحرب المعلنة من قبل الشرفي ومشروعه التغريبي على هوية الأمة الإسلامية وعقيدتها وقيمها .

قال الله تعالى : ((وَبَلِّغِ الْعِزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)) [المنافقون ٨] .

الهوامش:

* - نخالف الكاتب الفاضل في قوله : "قبل أن تحصل الردة وتسقط البلاد.. الخ" فنظام بن علي هو نظام بورقوية ، وما جرى من تغيير في أسلوب التعامل إنما هو تكتيك تقتضيه طبيعة (الاستلام والتسليم بين طاغية خبيث هرم إلى طاغية آخر شاب من زبانيته وتربى على عينيه، لذلك لم نفرح بتلك المبشرات السطحية التي قدم بها الجنرال بن علي بها نفسه . هل هي التجربة الأولى في الانقلابات العسكرية في بلادنا ؟ وهل نزل هذا الطاغية الصغير من المريخ !؟

- التحرير -

@مشاهدات في بلاد البخاري

د. يحيى اليحيى

كان هذا العام أول اختراق للصور الحديدي الذي فرضته الشيوعية على أهل بلاد ما وراء النهر - الجمهوريات السوفيتية - الذين ظل حالهم مجهولاً لأكثر من سبعين عاماً ، ذاق المسلمون هناك ألواناً من البؤس والاضطهاد ومحاولة طمس الهوية الإسلامية . وقد زرت تلك البلاد ببعثة من الجامعة الإسلامية وكان لي فيها انطباعات ومشاهدات أحببت تسجيلها .

وسيكون محور الحديث حول النقاط التالية :

١ - عالم مجهول أرضاً وتاريخاً .

- ٢ - الشيوعية وطمس الهوية الإسلامية .
- ١٣ - صمود المسلمين وتصديهم للإلحاد .
- ٤ - مشاهدات تسر المسلمين .
- ٥ - لنكن صورة طيبة للإسلام .
- ٦ - إن كنتم تألمون فإنهم يألمون كما تألمون !
- ٧ - عمن نأخذ أخبارهم .
- ٨ - حاجة المسلمين هناك .
- ٩ - وصية المسافر .

١- عالم جهنناه أرضاً وتاريخاً :

ربط الإسلام بين أتباعه برباط وثيق ، مبناه على التراحم والمحبة والتآلف "فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان ، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان . قال تعالى : ((إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)) [المائدة ٥٥]" (١) .

قال ابن القيم : "المواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال ، ومواساة بالجاه ، ومواساة بالبدن بالخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم ، ومواساة بالتوجه لهم . وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة. فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة ، وكلما قوي قويت. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله ، فلا أتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له" (٢) .

فحيثما كان هناك مسلم وجب على المسلمين أن يساعده وأن يذبوا عنه، ولكن الناظر في حالة المسلمين اليوم يجد أن المستعمر قد نجح في زرع الفرقة بينهم ، ووضع شعارات وروابط أخرى تسببت في تكتلات وطنية أو لغوية، أو غيرها ، حتى أصبح كثير من المسلمين لا يعنيه في قليل أو كثير ما يقع لإخوانه الذين في خارج قطره ، ويقول : مالي ولهم وما صلتني بأهل هذه البلاد أو تلك ! فأين نحن من قول الله تعالى : ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)) [الحجرات ١٠] ، وقوله ((أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)) [المائدة ٥٤] ، وأين نحن من قول الله تعالى يصف أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ((أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)) [الفتح ٢٩] ، بل أين نحن من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً" وشبك بين أصابعه .

إن الكفار أمة واحدة يوالي بعضهم بعضاً ، وإن المؤمنين إذا لم يتحدوا ويوالي بعضهم بعضاً فسيحل الفساد الكبير والفتن العظيمة ، ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)) [الأنفال ٧٣] . لو نظرنا إلى حالتنا اليوم لوجدنا أننا لم نعط إخواننا حقهم بل - بالعبارة الصريحة - بخسناهم جميع حقوقهم، حتى في الأمور الشكلية فلم نتسع صدورنا لهم ولا في الخرائط الجغرافية ، فقد وضعنا اسم المستعمر بدلاً من اسمهم ، وإن شئت فارجع إلى الخرائط الجغرافية الكبيرة أو الصغيرة فهل ستجد المدن الإسلامية ، فضلاً عن الدول الإسلامية في الاتحاد السوفييتي ؟ لا ، إنك ستجد بالخط العريض على تلك القارة (الاتحاد السوفييتي) أما مناطق المسلمين ، ودولهم ، وأراضيهم ، ومدنهم التاريخية التي ينتمي إليها الكثير من علمائنا فلا تجد لها ذكراً في الخرائط، ولقد تعبت كثيراً في الخرائط الجغرافية لعلي أحدد موقع مدينة بخارى، أو سمرقند ، أو نسا، أو خوجند ، فلم أهدت لذلك ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الوصاية التي فرضت على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - في تعليمها وإعلامها .

وإذا كان الكثير يجهل مواقع المسلمين هناك ؛ فما بالك بالتاريخ؟! فالجهل به عام ، ولذا فإنني سأذكر نبذة عن تاريخ وجغرافية هذه البلاد .

لقد غزا المسلمون بلاد أذربيجان من هذه المنطقة في خلافة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - على يد حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ، وفي سنة خمس وخمسين للهجرة عبر سعيد بن عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - نهر جيحون إلى بخارى فصالحه أهلها ، ثم عبر إلى سمرقند فصالحه أهلها أيضاً ، ولكن لم تلبث إلا قليلاً حتى نقضت العهد بعد ذلك ، ولم تخضع هذه الديار للإسلام تماماً إلا في عهد الوليد بن عبد الملك ، على يد القائد الشجاع "قتيبة بن مسلم الباهلي" الذي أرسى قواعد الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، ما بين سنتي سبع وثمانين وأربع وتسعين للهجرة . ومن ذلك التاريخ أصبحت تلك البقاع دياراً إسلامية خاضعة بأكملها لدين الله - عز وجل - .

وفي القرن السابع الهجري دخل التتار الإسلام ، فخضعت جميع مناطق ما يسمى اليوم بالاتحاد السوفياتي ، حتى موسكو نفسها قد بقيت في ظل الإسلام أكثر من قرنين . وبعد سقوط القسطنطينية في يد المسلمين تحول النصارى إلى روسيا ، فدخل الروس في النصرانية وأصبحت معقلاً لهم ، ثم قاموا بشن حروب شرسة على المسلمين بقيادة إيفان الثالث ، سنة خمس وثمانين وثمانمئة للهجرة حتى سقطت موسكو ، ثم جاء حفيده إيفان الرهيب فقام بإبادة للمسلمين حتى آباد مدناً كاملة بأسرها ، ثم بدأ الروس النصارى يزحفون على آسيا الوسطى فسقطت "طاشقند" عاصمة أوزبكستان - حالياً - سنة ١٢٨٢ هـ ، ثم سقطت سمرقند سنة ١٢٩٠ هـ ، ثم سقطت بخارى بأيديهم سنة ١٢٩١ هـ ، ثم سقطت عشق آباد وبلاد التركمان .

ذاق المسلمون في تلك الفترة - تحت حكم القياصرة - أبشع ألوان الذل والاضطهاد والاحتقار والابتزاز لأموالهم ، ثم قامت الثورة البلشفية الشيوعية سنة ١٩١٧ م ، فقام الشيوعيون بغزو بلاد المسلمين واحدة تلو الأخرى حتى سيطروا على تلك البقاع كلها في أقل من عشرين عاماً . ويقدر عدد سكان السوفييت بأكثر من ٢٤٠ مليون نسمة ، معظمهم من النصارى أما نسبة المسلمين فقد اضطرب الكتاب عن النسب السكانية اضطراباً كبيراً ، وذلك الاضطراب راجع إلى انتمائهم ، فمثلاً الأمم المتحدة والنصارى يرون أن نسبة المسلمين لا تزيد عن ١٠% ، بينما المسلمون يرون أنهم يزيدون على ٣٠% والوسط في ذلك - وهو الذي اتضح لكثير من زوار تلك البلاد - أن نسبة المسلمين تصل إلى ٢٥% فالمسلمون ما بين ٦٠-٨٠ مليون نسمة . هذا العدد الهائل من المسلمين رزح تحت نير الشيوعية أكثر من سبعين عاماً ، وهم في عزلة تامة عن إخوانهم لا يعرفون عنهم شيئاً البتة ، بل إنهم في عداد المجهولين ، أين نحن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو لأناس حبسوا في مكة - يعدون على أصابع اليد الواحدة - ويَقْنَتُ لهم في صلاته سائلاً الله أن يفك أسرهم "اللهم أنج عياش بن ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد" يتفقد النبي - صلى الله عليه وسلم - شخصاً أو شخصين فينص عليهم بالدعاء ، والذين أمامنا ليسوا ألفاً ولا ألفين بل ملايين لا نعرف عنهم شيئاً ، فضلاً عن أن ندعو لهم دعاء عاماً ، فضلاً عن أن نخصهم بالدعاء .

ونحن في عالم التجهيل المضروب على المسلمين عامة في بلاد الله كلها لا نعلم أن عدد الجمهوريات والدول التي أكثريتها إسلامية ، أو سابقاً كانت كلها إسلامية تزيد على أربع عشرة جمهورية ، ولو سألت واحداً منا ما هي ؟ فالمثقف يذكر لك واحدة أو اثنتين ، لا أقول مدينة بل دولة كاملة .

كما أن للمسلمين وجوداً في البلاد النصرانية ، مثل روسيا وأوكرانيا وجورجيا وغيرها ، حتى قيل : إن نسبة المسلمين فيها تقدر بـ ١٠% .

وهناك غير الجمهوريات الست المشهورة جمهوريات تقع جنوب غرب جبال أورال، وهي بشكيريا وعاصمتها أوبا ، وتتاريا وعاصمتها قازان ، وقازان هذه كانت عاصمة القطاع الذهبي الذي خضعت له موسكو للحكم الإسلامي أكثر من قرنين ، وأدمورت ، وماريا ، وجوفاش ، وموردوف . أما شمال القوقاز فتقع فيه أربع جمهوريات إسلامية وهي : داغستان وعاصمتها محج قلعة، الشوشان والانقوش وعاصمتها غروزني،قبرديا، قارتشاي، وهم الشراكسة . وهناك جمهورية أذربيجان، وتقع وراء القوقاز بين بحر قزوين والبحر الأسود ، ويزيد سكانها على ستة ملايين ، يمثل المسلمون فيها سبعين بالمائة ٧٠% ، ونسبة أهل السنة فيها تزيد على ٢٠% ، وهذه نسبة طيبة وإن كان الرافضة يحاولون التقليل من هذه النسبة والتجهيل بأهل السنة في تلك البلاد . أما من ناحية الموارد فإن الأقاليم الإسلامية تملك أعظم الثروات والموارد فيما يسمى سابقاً بالاتحاد السوفييتي ، فعلى سبيل المثال : فإن ٥٠% من نفط الاتحاد السوفييتي يوجد في الأقاليم الإسلامية ، كما يوجد فيها معادن اليورانيوم والفوسفات والرصاص والقصدير ، كما أن فيها ثروة كبيرة من القطن والصوف والحريز .

وقد كانت هذه الموارد كلها تسخر لخدمة الشيوعية، وتستغل لنشر الإلحاد وضرب المسلمين داخل البلاد وخارجها ، وما بلاد الأفغان عنا ببعيد .

ولذا أبدى الغربيون قلقهم إزاء استقلال الجمهوريات الإسلامية ، ويرى المحللون أن الغرب لن يتهاون أبداً إزاء القوة الكامنة في الجمهوريات الإسلامية ، فقد حذر ساسته من مخاطر ما أسموه القنبلة الإسلامية في مواجهة القوميات الأخرى ، فجمهورية كزخستان مثلاً تعتبر الدولة الثالثة من حيث امتلاك الأسلحة النووية ، إذ أنها تأتي بعد روسيا مباشرة، واستقلالها يعني أن العالم الإسلامي قد تمكن بالفعل من امتلاك القنبلة النووية ، ولهذا ثارت مخاوف الغرب فأبدت ألمانيا مثلاً على لسان وزير خارجيتها بأن كزخستان تملك أسلحة نووية تفوق الأسلحة في كل من بريطانيا وفرنسا، وإن احتفظت بهذه الترسانة من الأسلحة النووية ستصبح بذلك أول دولة إسلامية نووية ولها القدرة على تطويرها .

٢- الشيوعية ومسح الهوية الإسلامية :

استخدمت الشيوعية جميع الوسائل والأساليب في محاولة طمس الهوية الإسلامية وتحويل المسلمين إلى ملاحدة ، فسلكت جميع الطرق وسخرت جميع قواها في هذا الغرض ، حتى ظن من لا يعرف ماهية هذا الدين بأنه لن يبقى في هذه البلاد من يقول : الله ، الله . ومن وسائلهم :

١- الاستيلاء على كافة المساجد وتحويلها إلى متاحف ومستودعات وملاعب ومراقص وخمارات ومستشفيات الخ ، - ولا أقول هذا نقلاً عن أحد بل ووقفاً عليها - في تركستان وحدها تم إغلاق أكثر من ستة وعشرين ألف مسجد ، وجرى تحويل أكثر من سبعمائة مسجد في بلاد التتار ، وخمسائة مسجد في بلاد القفقاز إلى مواخير وأندية وإسطبلات .

٢- إغلاق جميع المدارس الإسلامية وفعلوا بها كما فعلوا بالمساجد ، وكان قبل الثورة في بلاد بخارى وحدها أكثر من ثلاثمائة وستين مدرسة ، وقد فنيت تلك المدارس ولم يبق فيها قائماً الآن سوى خمسين مدرسة ، وقد جعلت متاحف ومسارح وغير ذلك . وقد اطلعت بنفسي على مدارس في (خوارزم) وفي مدينة (خيوة) ودخلت مدرسة كبيرة مكتوب على بابها "مدرسة محمد أمين خان" بنيت سنة ١٢٧٥ هـ وبجانبها عدة مدارس ، وللمدرسة منائر جميلة وقد كتب في مقدمة المدرسة "قد أوصل الله تعالى اختتام بناء هذه المدرسة التي هي خير المدارس في العالم سنة ١٢٧٥ هـ بأمر سلطان الزمان الغازي محمد أمين بهادر" وهذه المدرسة ذات بناء شامخ عجيب ، وجمال يأخذ بالألباب ، ولما دخلت بوابتها ما بين منارتين وجدت عند الباب امرأة وراء مكتب فسألناها فقالت :

هذا فندق ، ثم دخلنا فرأينا سلماً ينزل تحت الأرض فسألت عن ذلك ، فقيل هذه خمارة ، والموسيقى تضرب بين جنباتها ، ثم خرجت من المدرسة إلى مدرسة مجاورة فإذا فيها دار للسینما .
وهذه المدينة ما إن تدخلها إلا وتطالعك المدارس المشيدة ومنايرها العالية الجميلة وهي تبكي أطلالها وعمارها وروادها .

٣- إحراق وإغراق لجميع المصاحف والكتب ، وقد حدثني الثقات أن الشيوعيين جمعوا كأمثال الجبال من الكتب في بخارى وسمرقند وأحرقوها .

٤- منع اقتناء أي مصحف أو كتاب ، مما اضطر كثيراً من الناس إلى إحراقها أو دفنها في الجدران ، أو حفظها على خوف وقلق عظيمين ، لأن من وجد في حوزته كتاباً أو ما في حكمه مما يمت إلى العلم الشرعي أو اللغة العربية بصلة فهو معرض للمحاسبة ، ولهذا لا تكاد تجد الآن عند كثير من المسلمين اليوم مصحف ولا كتاب بل لا تجد في مساجدهم ذلك أيضاً .

٥- من وسائل الشيوعيين في طمس الهوية الإسلامية نشر وطباعة الكتب الإلحادية والأدب الإلحادي .

٦- تسهيل الانضمام إلى الحزب الشيوعي والتمتع بامتيازاته .

٧- تزيف التاريخ الإسلامي الخاص بالمنطقة ، فقد حاولوا تجهيل الأبناء جميعاً في أن هذه البلاد تمت إلى الإسلام بصلة ، وإن ذكروا فتوحات المسلمين فإنهم يذكرونها على سبيل الغزو والسيطرة والاستعمار وإذلال شعوب المنطقة ، ولذلك كثيراً ما يوجد في شوارعهم رسوم وصور المكافحين الملاحدة الذين قاموا بمكافحة الإسلام في القديم والحديث .

٨- فرض اللغة الروسية ومحاربة الكتابة العربية ، وهذا شامل لجميع نواحي الحياة ، فاللغة الروسية مفروضة رسمياً في المدارس والمعاملات وجميع الدوائر الحكومية ، حتى المزارع والمتاجر لأنها كلها تحت سيطرة الدولة فلا يمكن التخاطب على الأقل كتابياً إلا بالروسية ، حتى أصبح كثير من المسلمين لا يستطيع أن يكتب بلغته الأصلية التي يتحدث بها .

٩- منع النساء من الحجاب الشرعي ، وقد أقيمت الاحتفالات الرسمية الإلزامية لحرق الحجاب .

١٠- تسخير نساء المسلمين في الأعمال المهنية الشاقة ، فحيثما توجهت نحو أي مزرعة تجد نساء المسلمين يمسن بالمساحي لحرثة أرض الدولة ، أما الشوارع فإن تنظيفها موكل إلى عجائز المسلمين .

١١- تهجير الكفار إلى بلاد المسلمين ، ليمتزجوا بهم وكذا العكس ، ولذا تجد الروس والكوريين وغيرهم قد سكنوا في أحياء المسلمين وقراهم ، وكل هذا مبالغة في طمس الهوية الإسلامية ، فأصبحت تجد المسلم وجواره الروسي النصراني أو الملحد والكوري الوثني ، فالبلاد التي جل سكانها مسلمون هجروا منهم إلى بلاد النصراني ثم نقلوا من النصراني إليهم .

١٢- تهجير أقوام بأكملهم مثل مسلمي القرم ، فقد قام ستالين بقتل عدد كبير منهم بالجوع ، ثم هجر ما يزيد على مائتي ألف إلى مناطق نائية في عربات الماشية فمات أكثرهم في منتصف الطريق ، ولم يبق في ديارهم واحد .

١٣- من مبالغة الشيوعية في طمس معالم الإسلام عند الناشئة تغيير أسماء المسلمين ، حيث تجد اسم المسلم المتعارف عليه عند أهله وأقاربه غير الاسم الرسمي في الاثباتات الرسمية وهو الاسم المعتبر عند الدولة .

وضع أصنامهم في كل حي وشارع وناحية ، فما تدخل شارعاً ولا محلة ولا قرية إلا وتجد تمثال لينين أو غيره على منصة مرتفعة .

١٤ - تسمية الأحياء والمدن والقرى والشوارع والمدارس وغير ذلك بأسماء رموز الحزب ، وهذا شامل لجميع المدن والقرى في طول البلاد وعرضها ، فمثلاً يقولون : قرية لينين ، حي ماركس ، شارع ستالين وكذا ، فأصبح الطفل ينشأ لا يعرف سوى لينين وستالين وماركس وغيرهم من دهاقنة الإلحاد (٣) .

١٥ - كتابة عبارات إحادية عند نهاية المدن والقرى بدلاً مما نكتبه نحن "تصحبكم السلامة أو الله يحفظكم" فيكتبون لينين معكم ، لينين يحفظكم .

١٦ - التعليم الإلحادي الإجباري لجميع الجنسين ، ولمدة عشر سنوات ، يتعلم الطفل فيها إنكار الخالق وتفسير التاريخ تفسيراً مادياً ، ثم تؤكد ذلك وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية . فالمسلم ملزم أن يدخل ولده وابنته المدرسة ، ولمدة عشر سنوات ، فيدخل الولد وعمره ست سنوات ويتخرج وعمره ست عشرة سنة ، فترة المراهقة كلها يعيشها بين الشيوعيين ، وبعد التخرج يختطف إلى سيبيريا للتجنيد الإجباري مدة عامين ، كل هذه المدة في يد الملاحدة ليس في يد أبيه وأمه ، وإذا رجع إلى البيت فلا مصحف ولا كتاب ، إنما التلفزيون والمجلة التي تعلم الكفر والإلحاد فماذا ستكون النتيجة؟! .

١٧ - منع جميع شعائر الإسلام ، فكل ما يخطر بالبال من شعائر هذا الدين فاعلم أنه محظور في تلك الجمهوريات إبان الشيوعية .

١٨ - تسخير برامج الإعلام كلها لغرس الإلحاد والكفر ، فالتلفزيون في ثلاث قنوات : قناتان تبثان من موسكو وقناة تبث من نفس الجمهورية ، فالمسلم حيثما وجه التلفزيون فهو بين هذه القنوات لا يتعداها .

١٩ - الحظر على المسلمين من اتصالهم بالخارج ، ومنع المسلمين في الخارج من الاتصال بإخوانهم في الداخل ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا السور الحديدي الذي ضرب على المسلمين هناك شمل حتى الاستماع إلى القنوات الإذاعية سوى الإذاعات المحلية ، فلقد شاهدت جهاز الراديو في الفندق - وهو يمثل الشيوعية في قمة تعصبها - وليس فيه الجزء الذي تبحث فيه عن المحطات ، كما هو عندنا ، وإنما هو عبارة عن مفتاح واحد تضغط عليه المرة الأولى فتخرج لك إذاعة موسكو ، والثانية الإذاعة المحلية ، فليس هناك مجال لأن تبحث عن محطة أخرى . وحتى بعد أن سمح بأجهزة الراديو المتطورة سلط التشويش على المحطات الأخرى .

٢٠ - القضاء على العلماء والمشايخ ، وقد حدثني أستاذ في طشقند أن أباه كان يصلي بالناس ويعلمهم ، فاطلعت عليه المخابرات - الكي.جي.بي - حين خروجه لصلاة الفجر وبعد مساءلته وكان صريحاً معهم ، فقدروا صراحته وقالوا : سنخفف عنك العقوبة ونشفع لك عند مديرنا ، وفعلاً خففت عنه العقوبة فأعطي مسافة من الشارع يقوم بتنظيفها ورشها بالماء كل يوم قبل صلاة الفجر ، يقول : حتى أصيب والدي بالشلل من شدة البرد حيث كان عمره يناهز السبعين عاماً وهذا عمله اليومي . هذه أخف عقوبة عند الشيوعيين لعلماء الإسلام ودعاته .

٢١ - إجبار الطلاب على الإفطار في رمضان ، ورغم هذه الحرب الشرسة ضد الإسلام فقد كانت الشيوعية تخشى من بقاء بعض المسلمين على إسلامهم وتمسكهم به ، فحدثني أحد الثقات قائلاً : لما كنا ندرس في المدارس كان مدير المدرسة في صباح كل يوم من رمضان يمر بنا ، فيجبرنا على الشرب حتى في الأيام الشتوية ، وهذا الإجبار خاص بأولاد المسلمين .

٢٢ - إبادة المدن المحافظة على دينها مثل : مدينة خوقند في وادي فرغانة ، فقد أبيت هذه المدينة مرتين : في عهد القيصرية وفي عهد الشيوعيين البلاشفة .

٢٣- استخدام الإرهاب عن طريق المخبرات في التجسس على الناس في بيوتهم ، ووضع مراكز التفتيش عند مدخل كل مدينة وقرية ، حتى إنه ليخيل إليك - إذا قدمت إحدى القرى - أنك دخلت جمهورية أخرى فالفنادق مثلاً لا تقبلك نزيلاً عندها وليس معك تأشيرة لدخول هذه المدينة أو القرية ، ولقد دخلنا مدينة خوقند من وادي فرعانة في ساعة متأخرة من الليل فقصدنا الفندق وأبرزنا له الجوازات فلم يقبلنا ، فقلنا له ولم؟ قال: ليس معكم تأشيرة لدخول المدينة . فقلنا أوليست من مدن أوزبكستان ونحن نحمل تأشيرة لدخول الدولة فلم يقبل .

فالمطلوب من الزائر أن يأخذ تأشيرة لجميع المدن والقرى!!

٢٤- ربط الناس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم بالدولة عن طريق الاقتصاد الذي سيطروا على جميع وسائله وطرقه، حيث تسيطر الدولة على جميع المزارع والمحلات التجارية، والمصانع، وسيارات النقل والأجرة، والعمائر الكبيرة، وجميع الثروات . ولا يملك الناس سوى بيوتهم وسياراتهم الخاصة.

٢٥- أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها حاولت الدولة أن تظهر للوفود الرسمية التسامح، فأذنت بإقامة مسجد في كل ولاية لا يتسع لأكثر من خمسمائة مصلٍ ، ولكن لا يجوز أن يدخلها من عمره أقل من خمسين عاماً. وليت الأمر انتهى عند ذلك! بل إن الدولة هي التي تعين الإمام ويشترط أن يكون من الحزب أو من المخبرات ، وعليه أن يكتب التقارير عن كل داخل إلى المسجد. وأنشأت كذلك إدارات دينية تحت إشرافها، ومدرستين هما: مدرسة مير عرب في بخارى ومعهد البخاري في طشقند، وكان المسؤولون عنها من فجار القوم، وقد حدثني من درس في مدرسة مير عرب في بخارى أيام الشيوعية، أنه كان يدخل عليه المدرس ولما يصح بعد من الخمر (٤).

حيال ذلك نشأت أجيال لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن حتى رسمه، حيث تجد عدداً كبيراً من المسلمين لم يسبق له أن رأى المصحف . وبعد هذا العرض المجمل عن خطط الشيوعية في طمس نور الإسلام من قلوب الناس، حيث لا مصحف ولا كتاب ، ولا عالم ولا داعية ، ولا مسجد ولا مدرسة ؛ هل نظن أنه بقي في هذه الديار من يقول الله الله..؟ من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة؟ الجواب في الفقرة القادمة إن شاء الله .

«يتبع»

الهوامش :

١- مجموع الفتاوى ١٢٨ .

٢- الفوائد ٢٢٢ .

٣- هذه عادة الطغاة في كل زمن يريدون تخليد انفسهم وأسلافهم بإطلاق أسمائهم على الأماكن ومسح آثار من يخالفهم الرأي ، ويعكر على تسلطهم .

- التحرير -

٤- هل يصف الكاتب ما كان عند السوفييت ؛ أم ما هو جارٍ في كثير من البلاد العربية إلى اليوم؟! لا ندري .

- التحرير -

(٢)

محمد بن حامد الأحمري

طالب عربي مسلم يسكن في جلاسجو إحدى مدن الشمال البريطاني . وفي أول شهر له في المدينة ، أدرك زوجته المخاض ، واستدعى الممرضات من المستشفى ، وحاولت إحداهن الحديث مع زوجته التي لم تكن تعرف الإنجليزية ، وظننت أن الزوج لا يعرف اللغة الإنجليزية أيضاً . ثم ولد للمرأة ولد ورفعته إحداهن وقالت : "عدو جديد" ، نعم أصولي جديد يولد ، مصنف منذ أول ثواني الميلاد عدواً لبريطانيا وليس فقط أصولياً ، لقد كانت هذه الممرضة في وعي تام لقضية الإسلام والنصرانية والصراع العقائدي والتاريخي ، كانت تعبر عن ثقافتها بصوت عال مسموع لصاحبها بلا تلكؤ ولا مجاملة ولا غبش في التصور كالذي يعانيه أكثر المسلمين اليوم ، حيث يلوكون كلمات الأخوة الإنسانية والصدقة . إنها كلمات للاستهلاك الإعلامي وملء أسماع الجهلة والأتباع في العالم الثالث فقط ، أما هم فيدركون حقيقة الموقف تماماً ، وتعرف الممرضة هذه السياسة الواقعية ، وتعيش بها وليست مشغولة بصراخ الإعلام الاستهلاكي . إن المسلمين يحبون أن يسود العالم السلام لكن لماذا هم لا يفكرون به .

عندما قالت الممرضة ما قالت نهرها والد الطفل، وأنكر عليها هذا الموقف والعداء من الطفل الوليد ، فاحمر وجهها وارتبكت جداً واعتذرت، ووصل الخبر لإدارة المستشفى واعتذر منهم أكثر من شخص . ولكن هذه الحقيقة تفرض نفسها بلا غطاء . وكأنني بوالده يقول : يا بني لقد سبقوا الشيطان إليك قبل أن يغمزك منذراً بالصراع أبد الحياة، صراع الحق والباطل ، هؤلاء سبقوا وليس بغمزة شيطانية لا نراها ولكن بكلمة واضحة لنا نحن الثلاثة فقط أنت لا تعي ما قالت هذه الممرضة ، وأمك لا تفهم لغتهم ، ولكن بقية حياتك - إن أعطاك الله العمر - ستكون شرحاً لما أجملته لك الممرضة .

وهذه بداية الطريق صريحة واضحة بلا تمويه، فهل يا ترى ستعيش حياتك بهذا الأسلوب ، وهل تراك تفهم العالم الذي تعيش فيه ؛ أم سيسلبونك عقلك ، ثم تستميت في سبيلهم والدفاع عنهم وعن فكرهم وتقول عن والدك : أصولي متخلف ، وأنت متحضر تفهم العالم ويفهمك . إن براءتك وطفولتك لم تشفع لك ولن تشفع لأمتك مجاملاتها الطويلة ووعيتها المنقوص . وقبل أن أسمعك الأذان يا بني أسمعوك الموقف العدائي المشهود .

هذه مقدمة فرضت نفسها بين يدي الحديث عن كتاب: "التهديد الإسلامي أسطورة أم حقيقة" (١) . والذي يرى فيه كاتبه "جون أسبوسيتو" خطورة الانطباع الذي يسيطر على تصرفات السياسيين الغربيين تجاه الإسلام ، إذ يختصرونه إلى أن الإسلام هو الخميني وصدام ، وهم بنظر مفكريهم أصولية بروتستانتية حيث أن استعمال كلمة أصولية بمعناها التاريخي المركز في الذاكرة الفكرية الأمريكية له أيضاً أبعاده من كراهية سيطرة المتدينين على الحياة الأمريكية وتحريمهم الخمور والتضييق على الناس (٢) .

ويرى عدد من المفكرين عندهم أنه لا يمكن التعامل مع الإسلام بالإقناع الفكري والحوار الحضاري - كما حدث مع عديد من الشعوب والحضارات التي التقت مع الحضارات الغربية وذابت في الثقافة الغربية الجديدة - وهذا الإسلام المقاوم يثبت يوماً بعد الآخر أنه لا يمكن أن يتجاوب مع الديمقراطية والرأسمالية بسهولة ، لأن موقف الأصولية شديد جداً تجاه الدول الغربية ، وهم القطاع الرافض للغرب في العالم الإسلامي ، لأن أعرق أذى أصاب كرامة الأمة المسلمة من الغربيين ، "إن آخر فكرة مستوردة لقيت قبولاً بين المسلمين كانت العلمانية التي مثلتها القومية

العربية في عهد عبد الناصر وأحزاب البعث في سوريا ولبنان والعراق ، وكان عاقبتها هزيمة ١٩٦٧ م " (٣) .

ويقول أسبوسنتيو إن الديمقراطية التي يراد فرضها فرضاً يمكن أن تتحول إلى عنف أشد من عنف أي أصولية ، فإن الأفكار الجميلة إذا أكره عليها الناس أو استخدمت بعنف وتدمير للأخريين حتى يتقبلوها؛ فلن يشفع لها الواقع العنيف أن توصف بالتقدمية والاعتدال، ولن يرحب بها أحد . كما أن الفيتناميين لم يروا في الأمريكيان رسل ديمقراطية ولا دعاة للمساواة والحرية . إذ كيف تحررني بالقتل والتدمير وترغمني على الاقتناع بفكرة أخرى بالحروب والترويع والاستغلال؟! والمؤلف لا يرى أسلوب المواجهة بالقوة مع الأصولية هو الحل المناسب لما يحدث في العالم الإسلامي، بل - كعادة المستشرقين - يطالب بالإغواء والاحتواء والمداهنة وعدم الإثارة وألا يحكم الماضي في الحياة المعاصرة اليوم . وأيضاً فإن النماذج التي يطيب للساسة والمفكرين والإعلاميين الأمريكيين استخدامها كنماذج للتطرف الإسلامي تغفل جماهير أخرى ودعوات وحركات إسلامية واسعة لا ترى في الغرب شراً كما ترى النماذج المقدمة على أنها هي العالم الإسلامي . ويدعو إلى دراسة الداخل ، ودراسة الحركات الإسلامية وقادتها دون التسرع بأحكام لا تخدم المصلحة الغربية والإسلامية ، والمؤلف له علاقات كثيرة مع بعض قيادات الأوساط الإسلامية ويتحدث عن بعضهم عن سابق معرفة، وبخاصة أنه كانت له علاقة مع أستاذه إسماعيل الفاروقي في جامعة تمبل . ويرى خطأ معقولاً يمكن التفاهم معه والوصول إلى حلول وسط في القضايا التي يختلف فيها الإسلام عن النصرانية ، ولا يرى أن تطرح القضية إلا بأسلوب الحديث عن التسامح البارز في الديانتين والدبلوماسية المدركة ليست استخدام الدين سياسياً في الغرب ولا في العالم الإسلامي .

وإذا تعامل المسلمون بهذا الأسلوب الحضاري الذي يراه صحيحاً، هل يعني هذا أن يتعامل معه الغربيون بنفس الأسلوب الذي يحكمه التعاون والتفاهم والحوار والتسامح بين الأديان؟ لا ، لأن الواقع الذي يتحركون من خلاله الصليبية وتاريخها وحياة المواجهات الدائمة ، ولعل الأنموذج الذي ذكره المؤلف في بداية الكتاب عن حوار متخيل يدور بين زعيم مسلم متدين وبين زعيم غربي ، فيرون أن المسلم يتحدث من خلال الصراع الإسلامي النصراني والمواجهة التاريخية الدائرة إلى اليوم (٤) واقتسام العالم بين المسلمين والنصارى ولا يملك خياله الخروج من هذه الخيالات . والذي يؤيد ذلك في ذاكرة الإنسان المسلم الحوادث المتتالية إلى اليوم . وبمقدار ما يدل على رسوخ هذا التخيل عند المسلمين فإنه يدل أيضاً على رسوخه أكثر عندهم .

ويرى أن محاولة الوقوف موقفاً معتدلاً مما يحدث في البلدان التي دمرت فيها المشاريع الديمقراطية يجعل الشعوب المسلمة تتجاوب مع الغرب ، ولكن الدعم الحكومي الغربي للنظام الجزائري والتونسي اللذين صادرا البدايات الديمقراطية (٥) تؤكدان عداة الغرب للديمقراطية في العالم الإسلامي . في الوقت الذي تدمر الشعوب المسلمة بحجة إيجاد حياة ديمقراطية فيها . وذلك نفاق ينعكس أثره على رأي المسلمين في قضية حرياتهم وموقف الغرب منها .

وكما يحلم البعض - كما يقول المؤلف - بإيجاد نظام دولي ، فإن ملايين في شمال أفريقيا والشرق الأوسط ووسط آسيا يحلمون أيضاً بالحرية السياسية والديمقراطية . ولهذا يرى أنه يجب اعتبار هذه الملايين تحدياً لا تهديداً ، وحركة الإحياء الإسلامي في جوانب منها حركة اجتماعية تبحث عن إيجاد المجتمع الإسلامي الأصيل وليست القضية قضية دولة إسلامية عند البعض، والبعض الآخر يرى أنه لا يوجد المجتمع الإسلامي إلا بالدولة الإسلامية ، وعلى أي حال فكلا الاتجاهين ليسا بالضرورة ضد الغرب وضد أمريكا . ويرى أنهم دعاة لإصلاح الأوضاع في بلدانهم وليسوا ضد المصالح

الأمريكية ، وأنه لا بد لهم أن يفهموا بشكل أفضل ، وألا يحاكمهم الغرب إلى خيالاته عنهم ، بل بإمكان الغرب أن يفهمهم وهم يتطلعون إلى الغرب ليحقق لهم الكثير من آمالهم . وهذه فرصة خيالية للغرب في التعامل معهم وهم يقدمون على تحديد طريقهم في المستقبل(٦) ؛ وبالتالي للتأثير في مستقبل الإسلاميين عن صداقة لا عن عداوة .

وأراء المؤلف في خلاصته السابقة لكتابه آراء سابقه المحترفين والذين ما فتنوا يرون المراوغة والإغواء . وفي نفس الوقت يمارسون أسلوب المنفذ للحل العسكري المباشر ويتولون الإرشاد في مجاهل العالم الإسلامي عند حاجة الجيوش الغربية إلى ذلك ، كما سبق مراراً لا تحصى من قبل المستشرقين من قديم . ولا نحاكم نية المؤلف وهو الذي يذرع الولايات المتحدة متحدتاً في كل ناد عن العالم الإسلامي الذي يمكن وعيه وإدراك هويته ويُدل عليهم بمعرفته وجهلهم . ولكن ما هو الواقع الذي جرى تاريخاً بالأمس ويجري اليوم سياسة .

إن ذوي القرار لا يقفون عند فذلكة الكتاب والأدباء ، ولا عند المثقفين الذين يغلب عليهم الجبن - كما يرون هم - ولكن "القادة" يأخذون الأمر بأيديهم ويختارون القناعة التاريخية العميقة: "الحرب" هي الحل مع العالم الإسلامي الذي قويه لا يعقل ، وغنيه لا يعي، وفقيرة لا يعمل، وقدرته مهاجرة أو معزولة عن التيار اليومي.

ولهذا فتدمير القوي المجنون ، وتجهيل الغني وسلب وعيه ، وإذلال الفقير ، وتأكيد الهيمنة على الجميع، وتأسيس الفرقة والتنازع والوطنية والقبلية؛ هذه أنجع الحلول وليس ما يراه المستشرقون الجدد .

ما يحدث اليوم في طول العالم الإسلامي وعرضه هو الموقف العملي من الأصولية قبل حدوثها، فإن الفقر والجهل والمجاعة والصراع القبلي والحكم الفاسد لأمثال بري كل ذلك يدعو للبحث عن حل؛ وقد كان للدعوة الإسلامية السبق المباشر في هذا، فأقبل الناس على الاتحاد الإسلامي الصومالي وبدأ بالسيطرة على بعض المناطق. وهنا هبت القوى الغربية للحد من خطر الإسلام في الصومال الذي يهدد القرن الأفريقي كله وربما استطاع الاتصال بمناطق أخرى في أفريقيا فيشكل معها قوة إسلامية مخيفة في المستقبل.. وهذا يعوق ما خطط له مركز كارتر في القرن الأفريقي وما يأملون من مستقبل حاسم لأثيوبيا، وعادت أحلام الاستعمار القديم ونصاري البرتغال الذين قضوا - كما يرون - على الإسلام في الأندلس ، وكانت الرحلة حول إفريقيا وسماوا عملهم هذا طريق الرجاء الصالح للهيمنة على الإسلام من المشرق ، كما دحروه في الأندلس غرباً . واليوم استعادوا نفس الاسم في الصومال عملية "إعادة الرجاء الصالح" ولا يعلم أحد أين سيقف إحياء الرجاء الصالح الذي قد لا يقف عند حد الصومال ، فربما يرون ضرورة البحث عن إنشاء مناطق آمنة للنصاري في البلدان الإسلامية (القريبة) أو القضاء على الأصولية المنتشرة في أفريقيا التي يرونها قارة المستقبل للنصرانية، وليس للإسلام فيها حق. وعشرات الألوف تذهب بأحدث الأسلحة إلى الصومال لمكافحة المجاعة ، هل هذه الأعداد والعدة تدفع المجاعة أم تصنعها ، ومتى كانت القواعد العسكرية بحرية وبرية والاحتلال يقاوم المجاعة. وقد كانت هيئة الأمم المتحدة تعوق وصول الغذاء والدواء من قبل كما قال مبعوثها الرسمي "سحنون".

والغريب في تعاملهم مع الصومال أنهم بادروا إلى خطر محتمل لا واقع مشاهد ، وذلك لأنهم تعودوا أن يسددوا الصفعة الأولى على حين غرة ، ولا يكاد عدوهم يدرك مصدر الصفعة حتى تأتيه الثانية على الجانب الآخر دون إمهال .

يرفعون شعار التهديد بالأصولية والتخويف من الإسلام ، ويرفعون شعار حماية حقوق الإنسان ، وما هم يقتلعون شعباً بكامله في أوربا من أرضه ودياره ، لا لذنب جناه ، سوى أنه يدين بالإسلام .

بحجة أنه سيكون في المستقبل بؤرة للأصولية وتهديداً لأوروبا . وكذلك ما نراه من سلبيتهم أمام إسرائيل في تعاملها الشرس مع هذه الأعداد الكبيرة من الفلسطينيين الذين تقتلعهم من أرضهم ومن بين أظهر عائلاتهم وأطفالهم ، وتلقي بهم تحت الثلج والمطر . ويتفرج العالم المتحضر على مأساتهم، ويشاهد غطرسة إسرائيل وعنهجيتها التي لا يقف في وجهها أحد : لا مسلمون ، ولا غيرهم ، ولا هيئة أمم ، ولا نظام عالمي جديد ، ولا دعاة حقوق إنسان .

أن لنا أن نعرف خداع العبارات ونفاق الدعاية السياسية حيث السر ضد العنن . وشعار الأصولية والتخويف منها يبطن الحرب على الشعوب المسلمة والقضاء على قوتها وعزتها واستقلالها .

التخويف والترويع الذي يهزون به قلوب الحكام والمحكومين في عالمنا الإسلامي الواسع من خطر الأصولية والذي لا يقصد منه إلا إخفاء الأخطار الحقيقية الآتية من قبلهم هم أنفسهم . ليس أخطر على الأمم من عدو يأتيها بصورة منقذ حريص غير عليها ، وليس همه إلا مزيداً من الإضعاف والإنهاك حتى تكون لقمة سائغة له .

الهوامش :

- ١- J.Esposito .The Islamic Threat ، مطابع جامعة اكسفورد ، نيويورك ، ١٩٩٢
- ٢- علماً أن الولايات المتحدة وقعت تحت أيدي المتطرفين اليمينيين منذ عهد كارتر إلى نهاية عهد بوش . ولن يذهب الرئيس الجديد بعيداً عن سياسة سابقه فيما يبدو .
- ٣- فوكوياما ، نهاية التاريخ ، فري برس ، ١٩٩٢ ، نيويورك ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .
- ٤- ص ٦ .
- ٥- ص ٢١١-٢١٢ .
- ٦- ص ٢١٢ .

منتدى القراء

الصحة الإسلامية والتمكين

محمد الخريف

إن أي كيان أو دعوة أو تنظيم يستمد قوته الأساسية الدافعة إلى التمكين والاستخلاف من العقيدة أو المبدأ الذي يقوم على أساسه ويتبناه ويدعو إليه ، فكلما كانت هذه العقيدة واضحة قريبة من فطرة الناس وإدراكهم العقلي؛ كلما كان ذلك كفيلاً بتوفير عوامل النجاح والتقدم لها، وجعل الناس يستقبلونها بالقبول والاتباع عن قناعة راسخة يبذلون في سبيلها الغالي والنفيس، وهذا لا يوجد إلا في العقيدة الإسلامية المنزلة من لديه ربنا - سبحانه وتعالى- ، فهي الدين الوحيد الباقي على وجه الأرض السالم من التحريف بحفظ الله له، وهذا هو سر رسوخه وانتشاره رغم الحرب الضروس الموجهة إليه من قبل أعدائه، وتخاذل أتباعه عن نصرته والالتزام بتعاليمه .

ومتى ما خالط الإيمان بهذه القضية سويداء القلوب وخامر التصديق بها مخ العقول ، فإن ذلك يمثل مصدر قوة عظيمة ودفع ذاتي للدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات وتجاوز العقبات والعوائق، في سبيل التمكين لهذا الدين في أرض الله . إلا أن سنة الله الماضية تقتضي بذل الأسباب ، وعدم الركون إلى القوة الذاتية لهذا الدين فحسب ، بل جعلها مصدر دفع مهم إلى الأمام يعوض ويكمل جوانب القصور ، ولو كان الأمر خلاف ذلك - حسبما يتصور الخرافيون والصوفيون - لما شرع الجهاد الذي تتطير فيه الرؤوس وتسيل الدماء لإعلاء كلمة الله، ومن هذا المنطلق يجدر

بالقائمين على قيادة ركب الصحوة الإسلامية أن يدركوا هذه الحقيقة ، وأن لا تشغلهم بُنيّات الطريق عن أمور الدعوة الجسام ، ورعاية هذا الكيان والعمل على توفير مصادر القوة له، فالله قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، ودعوتنا كلها جهاد لكن على مراحل تقتضيها المصلحة إلى أن ترقى إلى مرتبة الجهاد بالسنان وبذل الدم ، فإن القوة المادية كما قيل هي عصب الحياة الدنيا وقوامها ، والضعيف فيها على مر العصور مقهور مسحوق لا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم ، ولسنا بهذا نطلب جعل الدعوة شركة تجارية! لكنه الاعتماد على الذات بموارد ثابتة وهذا من القوة التي أمرنا الله بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين ، والاستغناء عن مد يد الاستجداء ، مما يوفر للدعوة حرية التحرك ، واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط ، إضافة ، ما توفره القوة المادية للدعوة من ثقل سياسي واجتماعي هي بأمس الحاجة إليه ، وقريباً منك أخي الكريم ، مثلاً حياً المنظمات الصهيونية والنصرانية في العالم وما تملكه من إمكانات ضخمة وفرت لها نوعاً من السيطرة على محاور ثلاثة مهمة هي (المال والتقنية والإعلام) حتى أصبحت ذات نفوذ مؤثر في مجرى الأحداث والقرارات السياسية الداخلية والخارجية للدول التي تعمل بها ، إضافة إلى نشاطاتها وبرامجها الهائلة ، حتى وصفت بالدول الخفية لعظم قوتها ونفوذها . ولم يكن ليحصل لها هذا النفوذ والتمكن رغم فساد المنهج والانقطاع من حبل الله . لولا ما تملكه من إمكانات وتنظيم عملي، يبعث الحسرة في قلب المسلم الغيور لما يرى من حال الدعوة والأمة . فحري بنا - ونحن حاملو الرسالة السماوية الخالدة - أن نأخذ بكافة الأسباب المشروعة في ديننا، وأن الدعوة الإسلامية بوضعها الراهن بعيدة عن اتباع هذا المنهج بشكل جاد ، فهي فقيرة بالموارد الثابتة تعتمد على تبرعات الأخيار المتذبذبة ، بشكل يفقدها القدرة على وضع الموازنة والتخطيط للبرامج المستقبلية، إضافة لما تعانيه من ضعف البناء التنظيمي الذي يوحد الجهود ويستغل الطاقات، لاعتمادها على الجهود الفردية المبعثرة - باستثناء بعض الجمعيات الخيرية ذات الطابع الإغاثي - وهذا يكشف الحاجة الملحة لإجراء الدراسات والبحوث العلمية لتقويم نشاط الدعوة وإيجاد البرامج والخطط المناسبة لتوجيه الأعمال وتقسيمها إلى كيانات متنوعة النشاط ذات شكل مؤسساتي ، يجري التنسيق بين أعمالها عبر القيادة الشرعية العليا . صحيح أن الدعوة محاصرة ومقطوع عنها كل الموارد الرسمية في الجملة ، ولا يتوفر لها ولا إمكانات نادي رياضي ينمي العضلات !

لكن لا ينبغي الاستسلام للواقع ، وأبواب الفتح واسعة بعون الله . على أن لا يغيب عن بالنا ونحن نبذل الجهد وتقدم الأسباب أن نتشبت بعنصر مهم ألا وهو التوكل على الله والثقة بنصره وتأييده وعدم الانقطاع عنه بأسبابنا الضعيفة لكي نجمع بين الحسنيين التوكل والعمل كما أمرنا الله سبحانه في سبيل تحقيق الهدف العظيم ألا وهو التمكين للأمة الإسلامية وإعادة العزة والريادة المسلوبة منها ، بعد هذا الضعف والهوان الذي طال ظلامه وادلهم غسقه، ونكاد نلمح فجراً وضاء يلوح في الأفق بعد أن أوشك هذا الظلام على العسيسة ، ليسطع نور الإيمان كي يعم الأرض بالعدل والقسط بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، ((وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) والله أعلم .

محمد الحسيني

ألمانيا أكثر حواضر أوروبا تفتية ومدنية يلفها الرعب العنصري ، ويحيط بها الخوف من النازية الجديدة ، من شباب لم يعرفوا من النازية إلا شعار : "ألمانيا فوق الجميع" وطريقة هتلر في تحية الجماهير . ولم يشهد أحد منهم مقتل عشرات الملايين في الحرب العالمية الثانية ذهبوا ضحية الفكر العنصري من الألمان وغيرهم . تعود اليوم النازية ، وتتجه نحو المسلمين الأتراك وغيرهم من الجاليات التي تعيش في ألمانيا، وقد تجاوزت الحوادث في أقل من عام ألفي حادثة عنف قتل فيها سبعة عشر شخصاً منهم عائلة تركية . ويخيم رعب النازية الجديدة على الألمان، مما دعا المناوئين برئاسة رئيس الجمهورية إلى المشاركة في المظاهرات ضدهم.

ويرى المراقبون أن أوروبا التي تحاول الوحدة يتهددها خطر العنصرية الذي قامت من أجله له مدراس وكتب وأفكار خالدة في ثقافتهم، حيث يسود القارة الأوربية الحقد العنصري اللاهب والكراهة المتبادلة . والحروب العنصرية والقومية هي روح تاريخ أوروبا، فحرب المئة عام وحرب الأربعين عام ، والحرب العالمية الأولى والثانية كلها كان ميدانها أوروبا، وأكثر الشرور العنصرية في العالم مصدرها من هناك ، فهل تستطيع هذه الدول إيقاف هذا الخطر القادم ؟ وهل تستطيع الديمقراطية الألمانية إيقاف ذلك ؟ وهي التي جاءت بهتلر على أعناق الجماهير العاطلة التي رأته منقذها من البطالة، فأوجد للعاطلين العمل، وأخذهم إلى مصانع الأسلحة ثم إلى الجندية ثم إلى القبور .

بقي أن نعلم - أن وقوع أوروبا تحت طائلة الحروب والأحقاد لا تعني دعوة الكسالى والسليبين الممزقين إلى سيادة العالم ، وأن حركة العالم من حولنا لا تتأثر بالجموع الجاهلة الغافلة التي لا تعمل لقضية ، ولا يحركها دين ، ولا تطمع في حياة عزيزة ، ولا في جنة عرضها السموات والأرض ، إذ الحقوق لا تهدى ، والصراع والمدافعة سنة دائمة من سنن الله في الأرض .

تمت بعون الله والحمد لله رب العالمين
